

القسم الأول

حياة ابن حزم

أ - عمره

ب - أصله ونشأته وسبابه

ج - طلبه وعلمه ومصنفاته

د - مذهبه

هـ - أدبه

و - مهبه

ز - أخلاقه

ح - مزاجه

ط - هو والناس

ي - وفاته

obeikandi.com

حياة ابن حزم

آخر رمضان سنة ٣٨٤ — ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦ هـ
٧ تشرين الاول سنة ٩٩٤ — ١٥ آب سنة ١٠٦٤ م

أ - عصره (٣٥٠ - ٤٧٠ هـ)

ابن حزم من أئمة الثمرات التي انشق عنها فردوسنا المفقود
(الأندلس) فهو من أعلام الدين ، والشعر والأدب ، والسياسة
والتاريخ والفلسفة ، ومن ولي الوزارة هو وأبوه ، ومن تعرض للنكبات
والإبعاد ... وذلك كله يحتم علينا قبل البدء بالترجمة له ، أن نلم
- في إيجاز - بمجمل الحالة السياسية والفكرية في القرن الذي شهد
آثار عبقريته المعجزة ، ونعني بذلك الفترة بين سنتي (٣٥٠ - ٤٧٠ هـ) :

توفي الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر سنة (٣٥٠ هـ) بعد
أن تمتع العرب بالأندلس في حكمه ، بأيام تزي بأيام الرشيد في
بغداد : فقد قضى على الاضطرابات السائدة لأول حكمه ، وأدب
الخارجين عليه ، وقهر أعداءه الطامعين ، به وأرهب الإسبان ، وضمن
للناس رخاءً وأمناً ما سمح الزمان بمثلهما ، ووطد ملكاً على أساس
متينة . ساعده على هذا عقل راجح ، ودهاء واسع ، ووطنية مخلصنة

ورجولة كاملة ، مع بأس شديد وصفح جميل وهمة بعيدة ، فاجتمعت
الأندلس عليه ونعمت في عهده وازدهرت . ورفع للعلم صرحاً
باذخاً فأغدق العطايا على العلماء وأوسع لهم مجالسه وفتح خزائنه .
وكان من حظ الأندلس أن دامت ولايته خمسين سنة نسيت فيها
ما أصابها من شدائد . ولم يؤخذ عليه طول أيامه إلا تقريبه الموالي
تقريباً أضعف العصبية العربية فيما بعد . ولا يبعد عن ذهنك أن
الذي عجل خراب الأندلس فريقان : (الإسبان) العدو الخارجي
ثم البرابرة والصقالب وهم الجرائم الداخلية التي فعلت في الجزيرة
ما فعل الموالي من الفرس والأتراك في خلافة العباسيين ببغداد .
تربع على عرش الخلافة بعد الناصر ابنه الحكم وهو أعلم
الأمويين وأحكمهم على الإطلاق ، فسار بسيرة أبيه فغزا الجلالقة
الذين طمعوا في الثغور ، وانتقض عليه بعض الحكم الإسبان
فحاربهم وعقدوا معه المعاهدات ثم تفرغ لتنشيط الحركة العلمية
وكان قد بدأ ازدهارها في عهد أبيه الناصر ، فاجتمع له من العلماء
وكتب العلم ما لم يجتمع لغيره قط . وجميل بنا أن نروي لك
مبلغ عنايته بالعلم عن ابن حزم نفسه قال :

« إن عدة الفهارس في خزانة الحكم العلمية ، التي فيها
تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، في كل فهرسة عشرون

ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط^(١) » وقال المقرئ :
« جمع من الكتب مالا يوصف كثرةً ونفاةً حتى قيل إنها
أربعمائة ألف مجلد ، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها ...
(وإنه) قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر ،
في أي فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته
ويأتي بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا
الشأن^(١) . »

ولم تطل مع الأسف مدة حكمه أكثر من ست عشرة سنة ،
كان فيها بعد أبيه كالأُمون بعد الرشيد ، بل إن هذا الذي ذكره
المقرئ من قراءته الآلاف المؤلفات من المجلدات وتعليقه عليها وخبرته
بتواريخ أصحابها وفنونها شيء لم نسمع مثله لمخلوق آخر لا خليفة
ولا عالم .

توفي الحكم سنة (٣٦٦ هـ) وبوفاته انقضى العهد الذهبي للأندلس
وبدأ عصر الفوضى والاضطراب والتغلب وتمزيق الكلمة وطمع
الأعداء . ولم تقم بعده للأُمويين قائمة . ولئن ولي الأمر بعده
خلفاء من أُمية ، إن هذه الولاية لم تكن إلا اسمًا لا رسم له .

وانفسح الأمر للوزراء والحجاب^(١) المتغلبين فمثلوا في الجزيرة أدوار
الأفشين وبغا وآل بويه مع الخلفاء ببغداد .
ولي الأمر بعد الحكم ابنه هشام المؤيد وكان عمره عشرة
أعوام وأشهرًا فأخذ شأن الخلافة بالضوء ول ونسنى لابن أبي عامر
أن يقضي على حقيقتها ويبقي اسمها فنشأت بذلك دولة بني عامر
وإليك البيان :

كان المنصور بن أبي عامر هذا وكيلًا للسيدة صبح أم
هشام على عهد الحكم ينظر في أموالها وضياعها فسعت لدى
الحكم حتى ولاه القضاء وبدأت له فيه كفاية واسعة . فلما ولي
هشام على حدائقه تسلم المنصور الحجابة ، وقبض على ناصية الأمور
واستبد بها ، ورسم لنفسه خطة للقضاء على كل من يمكن أن
ينازعه الأمر يومًا من الأيام . وأفضل أن أطلعك على شرح
المقري لخطة المنصور فإنه خير من يعينك على فهم الحالة السياسية
حينئذ ، وما يحف بها من مكائد وتقلبات ثم يوضح لك سبب
النكبات التي حلت بابن حزم فجعلته يهيم بين السجون والمنافي
ناجياً بنفسه من بلد إلى بلد كما سيمر بك . قال المقري :

(١) وظيفة الحاجب في الأندلس تشبه وظيفة رئيس الوزراء

لعهدنا ، فهو الواسطة بين الوزراء والخليفة .

» . . ثم سما لابن أبي عامر أمل في التغلب على هشام لمكانه في السن ، وثاب له رأي في الاستبداد ، فمكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضاً ببعض . . . ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضاً ببعض ، كل ذلك عن هشام وخطه وتوقيعه ، حتى استأصلهم وفرق جموعهم . وأول ما بدأ بالصقابة الحصيان الخدام بالقصر فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبتهم وأخرجهم من القصور وكانوا ثمانمائة أو يزيدون . ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم وبالغ في خدمته والتنصيح له واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة ثم استعان على غالب بجعفر بن أحمد صاحب المسيلة ، وقائد الشيعة ممدوح بن هاني . . . ثم قتل جعفرًا بمالاة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم . ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدو من زناتة والبربر فرتب منهم جنداً واصطنع أولياء . . . فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة وقدم رجال البرابرة وزناتة وآخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم . فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت

الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحارسم الخلافة بالجملة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتب اسمه في السكة وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب فغزاه ستاً وخمسين غزوة لم تنكس له فيها راية ولا قل له جيش .^(١) بقي الأمر مستمسكاً على عهد الحاجب المنصور لأنه كان من أعظم السلاطين دهاء وحزماً وهيبة في القلوب . دامت أيامه سبعاً وعشرين سنة ثم خلفه ولده عبد الملك وتلقب بالمظفر فسار في الحجابة سيرة أبيه في الجملة سبعة أعوام ثم توفي سنة ٣٩٨ هـ فخلفه أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر وحاول أن يزيد من سلطانه فحمل الخليفة المستضعف هشاماً المؤيد على العهد له بالخلافة بعده ، فشارت لذلك نائرة الأمويين وسائر المضربين لأن السلطة الفعلية التي مارسها الحاجب المنصور - وهو يمني - كانت قذى في عيون المضربين كافة وسكتوا على مضض حتى طفق الكيل . وكان عبد الرحمن دون أبيه وأخيه كفاية وأكثر أطماعاً ، وزاد الأمر تسلط البرابرة والصقالبة ، مما أغضب المضربة واليمينية جميعاً ، وكانت فتنة خلع فيها المؤيد وسجن ، ورجع عبد

الرحمن الحاجب من غزوه ليتلافى الأمر فانفض عنه أنصاره
ونار به جنده وقتل سنة ٣٩٩ هـ وانتهى بذلك أمر الدولة العامرية .

بايع الناس لمحمد بن هشام بن عبد الجبار وتلقب بالمهدي
وبدأ يشدد الوطأة على البرابرة فثاروا به فأزعجهم عن قرطبة ثم
هاجموا المدينة فخلعوه ففر وبايعوا بعده سليمان بن الحكم بن
الناصر وتلقب بالمستعين سنة ٤٠٠ هـ فلم يفجأ الناس إلا المهدي
مستجيشاً بملك قسطلية الإسباني ، فاسترد ملكه وحارب البربر
فانهزم فقتلوه وأعادوا هشاماً المؤيد ثانية سنة ٤٠٣ هـ وبدأت
المهازل تترى بين المتقاتلين على الإمارة يستعين كل منهم بعدوه
وعدو بلاده على أخيه وابن عمه . ثم قتل هشام وأعيد المستعين
ونمض خيران العامري يكاتب الأدارسة ويحرض الناس على
خلع المستعين ، حتى جاء علي بن حمود العلوي من الأدارسة
وملك قرطبة سنة ٤٠٧ هـ وقتل المستعين فاقترضت دولة الأمويين
وبدأت دولة العلويين . أوجس خيران العامري خيفة من ابن
حمود فسعى سراً ليعيد الأمر إلى الأمويين بعد أن كان سعى في
خروجه منهم ، وشاء الله أن ينجح المسعى فبايع أكثر الأندلس
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ولقبوه بالمرتضى سنة
٤٠٨ هـ وتغير المرتضى على خيران وكانت بينهما أحداث انتهت

ببيعة عبد الرحمن بن هشام أخي المهدي ولقب بالمستظهر سنة ٤١٤ هـ . وتعاقب المستضعفون من أمية والأمر بينهم وبين العلويين دول ، حتى بويع هشام بن محمد المعتد بالله سنة ٤١٨ هـ فاضطربت ولايات الأندلس وهب أمية بن عبد الرحمن بن هشام يطلب البيعة لنفسه في هذه الاضطرابات والفتن القائمة ، حتى سئم الناس الأمويين ونادى أهل قرطبة بالأسواق والأرباض بالوقعة في الأمويين حتى لا يبقى منهم أحد فكان آخر خلفائهم هشام بن محمد وختم ملكهم سنة ٤٢٢ هـ .

انقرضت الخلافة الأموية ، واستقل كل وال بولايته ، وبدأ عهد ملوك الطوائف في الأندلس : فاستبد ابن جهور ^(١) في قرطبة

(١) كان أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور هذا رئيس الجماعة بقرطبة ، فلما خلت من بني أمية نهض بمقاليد الأمور خير نهوض فاستتب الأمن وعمرت قرطبة وسار في الناس سيرة الصالحين : يعود المرضى ويشهد الجنائز وأشرك في أمره اثنين ليكون شورى واستشعر الناس في عهده شيئاً من الطمأنينة إلى أن مات سنة ٤٣٥ هـ فقام بالأمر بعده ولده محمد بن جهور وطالت مدته ثم ضاق به أهل قرطبة فخاعوه سنة ٤٦١ هـ ولم يكن ابنه عبد الملك الذي ولي الأمر بعده بأسعد حظاً ، إذ أنه أساء السيرة فأخرج من قرطبة . ثم استولى عليها المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٨٤ هـ .

وابن عباد في إشبيلية ، وبقي الأمر هكذا مشتتاً لانظام له والفتن بين الملوك الصغار لاتهدأ ثأرتها حتى ملك الأندلس رجل واحد هو يوسف بن تاشفين ملك الملشين في بر العدو .

هذا هو عهد احتضار الدولة الأموية وانقضاء أيامها ، العهد المضطرب المخيف الذي شهده عالمنا ابن حزم ، مرت بأهم أحداثه مرّاً سريعاً ، لتبقى في ذهن القارئ حين يمر بحياة ابن حزم المشردة . وليعظم هذه العبقرية التي نجمت في عهد الاضطراب الاعظام اللائق بها . ولا يحسن أحد أن الناس في هذه القلاقل كابدوا شظفاً من العيش أو ضيقاً في أساليب الحياة ، بل إن الأمر على العكس ، لقد رتعوا في مجبوحة من عيش رغد ورخاء دائم ونعيم مقيم وعلوم زاخرة ، وحياة فكرية خصبة لولا ماشاها أحياناً من ممالة المتسلطين للعوام في تتبع كتب الفلاسفة والمشتغلين بها ، وضمنت لهم حضارتهم الزاهرة ألواناً من الترف والذائذ والبذخ " ماأظن أنا نتمتع بمثلها لهذا العهد . والمؤرخون مجمعون على أن الدول تنقرض وهي أكثر ماتكون تنعماً وخيراً وحضارة وسعة . ولعلك تذكر أن البربر محوا الدولة الرومانية و (رومة) ترفل بأسبغ حلال الحضارة والترف والنعيم ، وأن

(١) سيمر بك بعض ذلك بتصوير ابن حزم نفسه لمجتمعه .

الدولة البيزنطية انقرضت على أيدي العثمانيين الحشنيين حين بلغت علومها
وآدابها ونظمها وبذخها الغاية التي ما بعدها غاية ، وأن التمار قضاوا على
الدولة العباسية : وحضارة بغداد يومئذ في الذروة ، فما كان ضيق الفكر
وقلة العلم وبسطة العيش نذير الانحلال في يوم من الأيام ، إنما نذير
الانحلال هو الانحطاط الخلقى الناشئ عن بسطة العيش والانغماس في
حظوظ النفس ثم التفكك الاجتماعي الملحوظ في تفرق الأمة وتمزق
كلماتها وخروج بعضها على بعض واستعانة بعضها على بعض
بالأعداء . . . سنة الله في عباده ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .
ولست أغفل هنا الإشارة إلى ظاهرة اجتماعية سيطرت على
الأندلس كما سيطرت في المشرق ، غنيت بها اتخاذ الدين وسيلة
إلى الدنيا وذريعة إلى الغرض من الخصوم ، فقد كان السلاطين
لا يعفون عن إثارة الناس على من يحقدون عليه ، كما كان بعض
العلماء أسرع استجابة إلى تهيج الجماهير على من يخالف لهم
مذهباً أو يناقضهم في جاه أو ينتزع منهم سلطة ، أو من يخشى
إقبال الناس عليه لمواهبه وفضله وكفايته . ولا أطيل في هذا
لأن حياة ابن حزم كلها خير شاهد ومثل لما قررت ، وستأتيك
على جليتها .

د - أَسَامَ وَنَسَائِهِ وَجَبَابِهِ

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد . ويزيد هذا الذي إليه ينتهي نسبه كان مولى ليزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية أخي معاوية ، والذي كان القائد لجيش الأردن أيام الفتح لعهد عمر بن الخطاب . جده الأعلى (يزيد) فارسي أسلم (وكان نصرانياً^(١)) نسبته للأمويين نسبة موالاة . وأول من دخل الأندلس من آبائه هو خلف وقد استوطنوا قرية (منت ليشم) أو (متلجتم) في إقليم (الزاوية) من عمل (أونبة) من كورة (لبلة)^(٢) ، على نصف فرسخ من مصب الأوديل غربي الأندلس على البحر . ثم سكن آباؤه قرطبة .

(١) المعلمة الإسلامية .

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان : « لبلة قصبة كورة بالأندلس كبيرة يتصل عمها بعمل أكشونية . وهي شرق من أكشونية وغرب من قرطبة ، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام وأربعة وأربعون فرسخاً ، وبينها بين إشبيلية اثنان وأربعون ميلاً . وهي برية بحرية غزيرة الفضائل والشمر والزرع والشجر ، ولأدمها فضل على غيره ، ولها مدن . وتعرف لبلة بالحمراء . وهي مدينة قديمة فيها آثار عجيبة وهي على نهر طنتس وبها عين الشب وعين الزاج . ومن لبلة يجلب الجنطيانا أحد عقاقير العطارين . ينسب إليها جماعة منهم ... الخ

ولد بقرطبة بالجانب الشرقي من ربض منية المغيرة بعد صلاة
الصبح وقبل طلوع الشمس آخر ليلة الأربعاء ، آخر يوم من شهر
رمضان سنة ٣٨٤ هـ (٧ نوفمبر سنة ٩٩٤ م) ، بهذا كتب ابن
حزم بخطه إلى القاضي صاعد^(١) بن أحمد الأندلسي صاحب طبقات
الأمم المتوفى سنة ٤٦٢ هـ . وأسرته كما قال الفتح بن خاقان :
« بنو حزم فتية علم وأدب وثنية مجد وحسب » ولي الوزارة
منهم غير واحد ونالوا بقرطبة جاهاً عريضاً . وكان أبوه أحمد بن
سعيد من عظماء الوزراء ، ولي الوزارة للحاجب المنصور ابن أبي
عاصم ثم لابنه المظفر من بعده . وهو — على رأي ياقوت — الذي
بني لبني حزم مجدهم وذكرهم . ومن الطريف أن ننقل لك شك
ياقوت في نسبتهم الفارسية وهو يرويه — على ما أرجح — عن كتاب
مفقود لصاعد اسمه (أخبار الحكماء) في جملة قول لابن حيان قال :

(١) وجميع من ترجم لابن حزم عيال على صاعد في تعيين تاريخ
ولادته وفي كثير من أخباره ، وأكثرهم — ومنهم ياقوت — ينقل
عبارته بنصها . ولم يشذ إلا ياقوت في كتابه (إرشاد الأريب)
إذ نقل عن صاعد أن ميلاده سنة ٣٨٣ وظاهر أن هذا سهو من
الناسخ أو الناشر : لأن كتاب صاعد نفسه وبقية المصادر الناقلة عنه
أجمعت على أن ميلاده سنة ٣٨٤ كما ذكرت أعلاه . وذلك يتفق
وقول ياقوت نفسه بأنه مات عن اثنتين وسبعين سنة .

« وكان من غرائب انتمائه في فارس ، واتباع أهل بيته
له في ذلك ، بعد حقبة من الدهر تمولى فيها أبوه الوزير ، المقل
في زمانه ، الراجح في ميزانه أحمد بن سعيد بن حزم ، لبني أمية
أولياء نعمته ، لا عن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عهد الناس خامل
الأبوة ، مولد الأرومة ، من عجم لبلة ، جده الأدنى حديث الإسلام
لم يتقدم لسلفه نباهة ، فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذي بنى بيت
نفسه في آخر الدهر برأس رابية ، وعمده بالخلال الفاضلة من
الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأي . فاغتنى جرثومة سلف
لمن نماهم ، أغنتهم عن الرسوخ في أول السابقة . فما من شرف
إلا مسوق عن خارجيته ، ولم يكن إلا : كلا ولا ، حتى تخطى
عليّ هذا (صاحب الترجمة) رابية لبلة فارتقى قلعة إصطخر من
أرض فارس ؛ فالله أعلم كيف ترقاها ، إذ لم يكن يوثق
من خلل ولا جهالة ، بل وصله بها وسع علم ، وشجته رحم
معقوقة ، بلها بمسئأخر الصلة رحمه الله . »

توفي أبوه كما يروي المقرئ عن ابن حيان بذي القعدة سنة
اثنين وأربعمائة وكان منشؤه ومولده بقرية تعرف بالزاوية ،
(من أقاليم أكشونية بالأندلس) بعد أن ساءت حاله وتتابعت

عليه المحن والنكبات والتغريم في آخر سنيه ، ولا يبعد أن يكون
مات قهراً بعد ذلك العز الشامخ .

في هذا البيت نشأ ابن حزم ، نشأة المترفين المنعمين ، تحيط
به العناية من كل صوب ، (يلبس الحرير ولا يرضى من المسكنة
إلا بالسرير^(١)) ويتقلب في أعطاف النعيم ، غير مكلف بعمل
حتى مات أبوه سنة ٤٠٢ هـ . ولقد ترك لنا رحمه الله معلومات
قيمة عن نشأته هذه في كتابه (طوق الحمامة) ، فقد عرفنا منه
شيئاً من صفة داره وسعتها وكثرة أهل بيته ، قال في معرض
الكلام على جارية عرفها في صباه : « فلعمري بمصطنع كان في دارنا
لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة
أخي رحمه الله ، من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ،
من يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدرأ من النهار ثم تنقلن
إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها
على جميع قرطبة وفحوصها (مساكنها) مفتحة الأبواب فصرن ينظرن
من خلال الشراحيب ... الخ^(٢) » وهذه فقرات نقتطفها من

(١) كلمة صاعد فيه .

(٢) ص ١٠٨ طبع (دمشق ١٣٤٩ هـ) وعن هذه الطبعة جميع

النقول التي ستمر بك .

وصفه خراب دوره ومنها نعلم ما كانت عليه من الأُنس والعمران
» ٠٠٠ بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم
الفاشية ٠٠٠ تلك الحارِب المنمقة والمقاصير المزيّنة التي كانت
تشرق إشراق الشمس ، ويجلو المعلوم حسن منظرها ٠٠٠ طالما
زهدت في تركها وتذكرت أيامي بها ولذا في فيها وشهور صباي
لديها مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم ٠٠٠ بعد ما علمته من
حسنها وغضارتها ، والمراتب المحكمة التي نشأت فيها لديها ، وخلاء
تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها ٠٠٠ الخ^(١) « وكانت نعمة والد
المترجم — على ما يظهر — فاشية ، وغناه مستفيضاً فكانت له دور
محدثة ودور قديمة : « ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدثه
بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في
الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث ، في اليوم الثالث من قيام
أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت أنا بانتقاله وذلك في
جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ^(٢) »

هذه هي القصور التي درج فيها ابن حزم ، أما نشأته الأولى
فهي غريبة حقاً ولعلها هي السر في نبوغه وعبقريته ، بل إليها
يرجع الأثر الأكبر في تخرجه على تلك الصورة الفذة التي لم

يشبهه فيها أحد من أعلام الإسلام ، لافي الشرق ولا في الغرب
على مدى القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة ، ذلك أنه نشأ في
حجور العائلات المربيات من أهل بيته . ولابن حزم نفسه نحن
مدينون بالشيء الكثير في أخبار طفولته وبقية حياته قال :

« ولقد شاهدت الفسء وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه
غيري : لأنني رببت في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف
غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقّل وجهي .
وهن علمنني القرآن وروّينني كثيراً من الأشعار ، ودرّبنني في الخط .
ولم يكن وكدي وإعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة
جداً ، إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك ، وأنا
لا أنسى شيئاً مما أراه منهن ^(١) . »

وأنعم بها من نشأة يقظة إليها الفضل في أن نتمتع بالأدب
السامي الرفيع وبأحاديث الحب الرقيقة العميقة ، وبذلك الطبع
السمح الظريف الذي لا يعهد من إمام جليل وعالم كبير وصاحب
مذهب في الدين مجتهد منافع عنه ، بل العهد في رجال الدين :
جدّ صارم ، ومعيشة شاقة ، وبعد بعيد عن كل ذلك العالم الذي
طار فيه ابن حزم ونهل منه وعمل ، فلا يذهبن عنك سر نشأته
في (تكليف) عبقريته .

مات والد ابن حزم وكان المترجم « أقام في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنه ستاً وعشرين سنة » ^(١) وزير للمرتضى صاحب بلنسية وحارب في جيشه بغرناطة ووقع بأيدي أعدائه سنة ٤٠٣ بعد وفاة أبيه بسنة ٤ ، ثم لما قامت خلافة عبد الرحمن المستظهر في رمضان سنة ٤١٤ وكان صديقاً لابن حزم ، وسد إليه الوزارة فأقام فيها أشهراً حتى مقتل عبد الرحمن في ذي الحجة من السنة نفسها . وعاد إلى الوزارة أيام هشام المعتد بين سنتي ٤١٨ — ٤٢٢ وهنا تنتهي حياته الوزارية ^(٢) ويطلق المناصب إلى غير مارجعة .

ولنعرض الآن لما أصابه في هذه الفترة من نكبات وتشريد :
عرفت أن ابن حزم مولى بني أمية وأنه وزير هو وأبوه لخلفائهم وأنه كان يتشيع للأمويين « ماضيهم وباقيهم ويعتقد بصحة

(١) ياقوت

(٢) في الأعلام للزركلي أنه : « كانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة » ومما مر بك تعلم أنه لم ينل رئاسة الوزارة (التي هي المحجوبة باصطلاح ذاك العصر في الأندلس) لا هو ولا أبوه وإنما هي وزارة فقط . على هذا أجمعت كل المصادر التي اطلعنا عليها ولم ندر علام اعتمد الأستاذ خير الدين الزركلي في نقله هذا .

إمامتهم حتى نسب إلى النصب»^(١) ويتعصب لهم ويشيد بمفاخرهم وربما نال خصومهم من قریش في بعض المناسبات كقوله عرضاً في مقطوعة غزلية (طوق الحمامة ص ٢٧) :

ومذلاحت الرايات سوداً تيقنت نفوس الوری أن لاسبیل إلى الرشد
وعرفت أن عصره تداول حکم قرطبة فيه الأمویون
والعلویون (الطالبیون) وابن جهور ، وكان للبربرة والصقالبة
سطوة یارسونها في الفترات ، فاعرف أيضاً أن ابن حزم أصیب
(أو تحلی - كما تجب -) بصراحة متناهية ، وصلابة قوية ،
وصدع بالحق ، كل ذلك یصدم به الناس غیر مبال بالعواقب
ولا مستعمل فيه شيئاً مما نسمیه سياسة ومدارة . وأنت خیر
بأن صاحب هذه الأمزجة مضطر إلى مجاہدة حروب یشنها علیه
الراعي والرعية ، والعلماء والزمان من كل صوب ، فقدّر بنفسك
الشدة التي عانى غمراتها وصلي بوقداتها ابن حزم .

تنکر الزمان لوالد ابن حزم بعد قیام أمير المؤمنین هشام
الموید سنة ٤٠٠ فانكمش هو وابنه ثم مات سنة ٤٠٢ هـ ، فلما
كانت فتن البربرة وتخريبهم غادر قرطبة سنة ٤٠٤ وهي غارقة

(١) كلمة ابن حیان : تذكرة الحفاظ . والناصبة طائفة تبغض

عليها رضي الله عنه .

في الفتن - وقد أخرب البرابرة قصور آل حزم الجميلة في بلاط
مغيث - قاصداً المرية وأقام بها . فلما كاتب خيران العامري علي
ابن حمود الذي حضر إلى قرطبة وملكها وقتل سليمان المستعين
الأموي ، أوجس خيران من ابن حزم لتشيعه لبني أمية ، واتهمه
بإقامة بدعوتهم ؛ فسمى حتى اعتقله عند نفسه أشهراً ثم غربّه إلى
حصن القصر هو وصديقه محمد بن إسحاق ، وكان من حظهما أن
أكرم صاحب الحصن مشاؤهما . فلما بلغها المناداة بعبد الرحمن
ابن محمد سنة ٤٠٨ في بلنسية ركبها إليها بجرّاً وحملها فيها
الإقامة ، ووزر ابن حزم للمرتضى ، ثم كان مامر بك من قتل
المرتضى . عاد ابن حزم إلى قرطبة بعد غياب ست سنوات
(٤٠٩ هـ) ولبت حتى كانت خلافة المستظهر ووزارة ابن حزم له
أسابيع معدودة سنة ٤١٤ هـ .

ثم كانت وزارته لهشام المعتد .

ونرى من الواجب علينا أن نستمع إلى مترجمنا يحدث عن رحيله
ونكباته وآثارها في نفسه لنتم للقارئ الصورة التي نتوخاها له ، قال :
« ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات
وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والإغرام
الفادح والاستتار ، وأرزمتم (اشتمت) الفتنة وألقت باعها ،

وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال ، بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام ٤٠٢ هـ وانصلت بنا تلك الحال بعده ٠٠٠ ثم ضرب الدهر ضربانه ، وأجلىنا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة ٤٠٤ هـ ٠٠٠ ثم دخلت قرطبة في شوال سنة ٤٠٩ فنزلت على بعض نساءنا^(١) ٠٠٠ « ويقول في موضع آخر (طوق الحمامة ص ١١٧) : « ٠٠٠ إلى أن أَلقت الفتنة جرائها ، وأرخت عزاليها ، ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة ، ونزولهم فيها ٠٠٠ وتقلبت بي الأمور إلى الخروج عن قرطبة . وسكني مدينة المرية ٠٠٠ إلى أن انقطعت دولة بني مروان وقتل سليمان الظافر أمير المؤمنين ، وظهرت دولة الطالبية وبويع علي بن حمود الحسني المسعى بالناصر بالخلافة ، وتغلب على قرطبة وتملكها واستمر في قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار في أقطار الأندلس ، وفي إثر ذلك نكبني (خيران) صاحب المرية ، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين (وقد انتقم الله منهم عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي) أنا نسعى في القيام

بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ثم أخرجنا على
جهة الغرب ، فصرنا إلى حصن القصر ، ولقينا صاحبه أبو القاسم
عبد الله بن هذيل التجيبي المعروف بابن المقل ، فأقمنا عنده شهراً
في خير دار إقامة وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس هممة
وأكملهم معروفاً وأتمهم سيادة . ثم ركبنا البحر قاصدين بلمنسية
عند ظهور المرتضى عبد الرحمن بن محمد وسكناه بها . . . ثم دخلت
أنا قرطبة في خلافة القاسم بن حمود المأمون . . . » وقال واصفاً
خراب دوره وفيه ترى نثره البديع الممتع :

« وقد ^(١) أخبرني بعض الوراد من قرطبة وقد استخبرته عنها :
أنه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها ، وقد امتحت
رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى ،
وصارت صحاري مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأنس ،
وخرائب متقطعة بعد الحسن ، وشعاباً مفزعة بعد الأمن ، ومأوى
للذئاب ومعارف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكان للوحوش
بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية ،
تبدد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا ، فكان تلك المحاريب
المنمقة والمقاصير المزينة التي كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو

الهموم حسن منظرها : حين شملها الخراب وعمها الهدم ، كأفواه
السباع فاغرة تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك
عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهد في طلبها بعد أن
طال مازهدت في تركها . . . الخ »

وكثيراً ما ترى أمثال هذه الحسرة اللاذعة بين دفتي كتابه
الجميل (طوق الحمامة) من أشباه قوله ص ٧٨ : « ذكرت فيها
(أي في قصيدة) ما مضى من النكبات ودهمنا من الحل والترحال
والتحول في الآفاق » وقوله ص ١٥٣ في خاتمة كتابه : « فأت
تعلم أن ذهني متقلب وبالي مهتم بما نحن فيه من نبوء الديار ،
والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير
الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفرة ،
والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ،
والغربة في البلاد ، وذهاب الجاه والمال ، والفكر في صيانة الأهل
والولد ، واليأس من الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر
وانتظار الأقدار . . . » وانظر ص ٧٦ تر فيها طرفاً من تنكر
الأصحاب له بتنكر الزمان .

لم ينعم ابن حزم بعد نشأته بطائفة الاستقرار ، فضرب
في الأرض مضطراً ، لا يألّف بلدة إلا نبت به ولحقه فيها أذى

الخصوم والحكام فيجرحها إلى غيرها ، وكيد أعدائه ألزم له من ظله . طوّف في المرية وشاطبة وبلنسية وقصد ابن عباد بإشبيلية ، وحل في جزيرة ميورقة فتواطأ عليه فقهاؤها فأخرجوه ، وحل في القيروان ثم رجع إلى الأندلس . ولم يتبح له أن يرحل إلى المشرق ، إذاً لأرانا إياه في ألوانه الزاهية بريشته البديعة المصورة ، ولعرفنا رأي عالم كبير خصب القريحة في حضارة المشرق وعلومه وعلمائه . ولكن الزمن أمكر من أن يغفل عن عبقرى لحظة من اللحظات .



ج - طلبه وعلمه ومصنفاته

« ما تمت به الأندلس أن تكون كالعراق »
الفتح بن خاقان

أول طلبه

تقدم أن أول من لقن ابن حزم مبادئ العلوم والقرآن :
نساء قصره ثم أقام في الوزارة من بعد بلوغه حتى صار له ست
وعشرون سنة لم يكن له فيها طلب يذكر . وقد روى عنه أنه
قال : « إنني بلغت إلى هذه السن وأنا لأدري كيف أجبر
صلاة من الصلوات ^(١) » .

ولنا أن نشكر كل الشكر المجتمع النقاد الذي عاش فيه
ابن حزم ، فالإيه يرجع الفضل في توجيهه إلى طلب العلوم
والانكباب عليها حتى كان لتاريخنا منه فصل ضاف قلما أتخفنا
بمثله غيره .

أما السبب المباشر في انقطاعه إلى العلم فقد حدث به
الوزير الإمام أبو محمد بن العربي قال : « أخبرني الشيخ الإمام

(١) إرشاد الأريب . وفيه أن (أجبر) عند أهل الأندلس

بمعنى (أقضي) عند أهل المشرق .

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أن سبب تعلمه الفقه :
أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه فدخل المسجد قبل
صلاة العصر والحفل فيه ، فجلس ولم يركع ، فقال له أستاذه
(يعني الذي رباه) بإشارة : « أن قم فصل تحية المسجد » فلم
يفهم ، فقال له بعض المجاورين له : « أبلغت هذه السن ولا تعلم
أن تحية المسجد واجبة ؟ ! وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين
عاماً . (قال) قممت وركعت وفهمت إذاً إشارة الأستاذ
إليّ بذلك . (قال) فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد ،
مشاركة للأحياء من أقرباء الميت ، دخلت المسجد فبادرت
بالركوع ، فقبل لي : (اجلس اجلس ، ليس هذا وقت صلاة)
فانصرفت عن الميت وقد خزيت ولحقني ما هانت عليّ به نفسي
وقلت للأستاذ : « دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله
ابن دحون . » فدلني ، فقصدته من ذلك المشهد وأعلمته بما جرى
فيه ، وسألت الابتداء بقراءة العلم واسترشدته فدلني على كتاب
الموطأ لمالك بن أنس رضي الله عنه فبدأت به عليه قراءة من
اليوم التالي لذلك اليوم ، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو
ثلاثة أعوام وبدأت بالمناظرة .

والمقري يحدد لنا التاريخ الذي بدأ فيه ابن حزم الطلب

بقوله : « أول سماعه سنة ٣٩٩ هـ » والذهبي جعله سنة (٤٠٠ هـ) وقول المقرئ يقويه ابن بشكوال في الصلة (رقم ٤٠٨) إذ يذكر مع التاريخ أستاذه الذي قرأ عليه فيه فيقول : « وأول سماعه من ابن الجسور قبل الأربعمائة » .

وهناك من يذكر سبباً ثانياً في طلبه الفقه ، برويه عن عمر بن واجب قال : « بينما نحن عند أبي يبلنسية وهو يدرس المذهب ، إذ بأبي محمد بن حزم يسمعا ويتعجب ، ثم سأل الحاضرين عن شيء من الفقه أجيب عليه فاعترض فيه ، فقال له بعض الحضار : « هذا ليس من منتحلاتك » . فقام وقعد ودخل منزله فمكف ، ووكف منه وابل فما كف ، وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فنظر أحسن مناظرة قال فيها : « أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب » .

سبوغه وكبار تلامذته

سمع ابن حزم من : أبي عمر أحمد بن الحسين - ويحيى بن مسعود ابن وجه الجنة - ويوسف بن عبد الله القاضي - وأبي بكر حمام بن أحمد القاضي - ومحمد بن سعيد بن سات - وعبد الله

ابن ربيع التميمي - وعبد الله بن محمد بن عثمان - وأبي عمر الطلمنكي
- وعبد الرحمن بن عبد الله بن خالد - وعبد الله بن يوسف بن يامي .
وقرأ الفقه على أبي عبد الله بن دحون الذي مر ذكره آنفاً
وروى عن القاضي يونس بن عبد الله (انظر حديثه في ص ٨
من طوق الحمامة) - وأبي محمد بن بنوش القاضي - وأبي عمر
ابن الجسور - وأحمد بن محمد - وعلي بن سعيد العبدي من
أهل جزيرة ميورقة وغيرهم وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجي^(١)
وذكروا من شيوخه مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخير ،
وعنه - على ما يظهر - أخذ القول بالظاهر حتى صار فيه إماماً
متفرداً قال الضبي : « مسعود . . فقيه عالم زاهد يميل إلى الاختيار
والقول بالظاهر ، ذكره أبو محمد بن حزم وكان أحد شيوخه »^(٢)
وعين ابن حزم في كتابه (طوق الحمامة) ثلاثة من شيوخه مع
الفنون التي قرأها عليهم ، أولهم أبو سعيد الفتى الجعفري (ص ٦٦) :
ذكر أنه قرأ عليه معلقة طرفة بن العبد مشروحة في المسجد الجامع
بقرطبة ، يروي شيخه الشرح عن أبي بكر المقرئ عن أبي جعفر
النحاس . فعلمنا من هذا الخبر أن حلقات الأدب كانت حافلة

(١) إرشاد الأريب ، وتذكرة الحفاظ ، والصلة لابن بشكوال .

وطوق الحمامة (٥٢ ، ٥٣ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ، ١٢٤) النخ .

(٢) بغية المحتشم رقم ١٣٦١

في المساجد بالأندلس لا يخرجون فيها من رواية الشعر وشرحه ولا يتأثنون . وثانيهم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي (ص ١١٧) وكان أستاذه في القرآن والحديث والنحو واللغة . ومجلسه مقصود بالرصافة (ص ٦٨) .

وثالثهم والد صديقه أبي بكر المصعب بن عبد الله الأزدي المعروف بابن الفرضي (ص ١١٨) ، وكان قاضي بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدي ، طلب عليه الحديث .

وله غير هؤلاء شيوخ كثيرون ، فقد أجمع المترجمون له أنه سمع سماعاً كثيراً وذكر هو نفسه أنه طلب الحديث على سائر شيوخ الحديثين بقرطبة^(١) . ووصفوه بالاستكثار من علوم الشريعة والأدب ، وقرطبة إذ ذاك تغص بالفحول من العلماء .

وقرأ عليه رهط جم ، والذين أكثروا الرواية عنه جداً : تلميذه أبو عبد الله الحميدي وابنه الفضل أبو رفيع ، والإمام الوزير أبو محمد بن العربي . وهذا الأخير صحبه سبعة أعوام وقرأ عليه أكثر تصنيفاته قال :

« صحبت الإمام أبا محمد علي بن حزم سبعة أعوام ، وسمعت منه جميع مصنفاته ، حاشا المجلد الأخير من كتاب (الفصل) وهو

يشتمل على ست مجلدات من الأصل الذي قرأنا منه فيكون الفائت
نحو السدس^(١) . وقرأنا من كتاب (الإيصال) أربع مجلدات من
كتاب الإمام أبي محمد بن حزم سنة ٤٥٦ هـ ولم يفتني من تأليفاته
شيء سوى ما ذكرته من الناقص وما لم أقرأه من كتاب (الإيصال) .
وربما كان له شيء من تواليفه ألفه في غير بلده في المدة التي تجول
فيها بشرق الأندلس فلم أسمعه ، ولي بجميع مصنفاته ومسموعاته
إجازة منه مرات عديدة كثيرة ، آخر ما كان بخط اليحكي
رحمه الله^(٢) . «

ومن سمع عليه أيضاً على بن سعيد العبدري المتقدم الذكر
في شيوخه ، فإنه لما حل ابن حزم جزيرة ميورقة أخذ عنه العبدري
الفقه واتبع المذهب الظاهري ، حتى إذا رحل إلى المشرق وحج
ودخل بغداد ترك مذهب ابن حزم إلى المذهب الشافعي^(٣) .
ومنهم : أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد النهري الطرطوشي
المتوفى سنة ٥٥١ هـ : وهو أحد علماء المسلمين الأعلام ينسب إلى
طرطوشة من بلاد الأندلس . نشأ بها وطلب العلم في البلاد

(١) المطبوع من هذا الكتاب خمسة أجزاء ولا يعرف لها سادس

(٢) إرشاد الأريب .

(٣) التكملة لابن الأثير ، رقم ١٤٦٧

الأندلسية ، وأخذ عن أبي الوليد الباجي وابن حزم ورحل إلى الشرق سنة ٤٤٦ هـ وحج ولقي شيوخ العراق وأقام بالشام زمناً ودرس بها . وله مؤلفات أعظمها (سراج الملوك) وله كتاب البدع (وهذا الكتاب وكتاب البدع لابن وضاح : مأخذ كتاب الاعتصام للشاطبي صاحب المواقفات) وبين وفاته ووفاة ابن رشد الكبير شهران أو ثلاثة ودفن في الإسكندرية^(١) .

هذا بعض ممن أقرأهم ومن قرأ عليهم لا على سبيل الاستقصاء^(٢) .

وحري بمن طلب العلم للعلم كابن حزم أن يستكثر من الشيوخ والطلب ويجهد في ذلك همته العالية حتى يقتعد الذروة بين العلماء ، وإن نظرة فيما تحاور به هو وخصمه الباجي من كبار علماء الأندلس ، كافية في أن تقفنا على عزمته ونيته في طلب العلم ، وإذا لا نستغرب ما اغترف منه ولا نستكثر عليه أن يحوز ما حاز :

دخل الباجي وابن حزم في مناظرة فقال له الباجي :
« أنا أعظم منك همة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه ، تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبتَه وأنا أسهر بقنديل بائت

(١) عبد الوهاب عزام (مجلة الرسالة العدد ٣٣٤) .

(٢) انظر بعض ذكرياته عن أيام الطلب ص ٦٦ ، ٦٨ ، ١١٧

١١٨ من (طوق الحمامة) .

في السوق » فكان من جواب عالمنا المذهب الدقيق قوله :
هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت
في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته في حين
ماتعلمه وما ذكرته ، فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا
والآخرة ^(١) » فأفحمه وحق له ذلك .

وقال له مرة بعد انقضاء مناظرة بينهما : « تعذرني فإن
أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة ! » أراد (أن
الغنى أمنع لطلب العلم من الفقر ^(٢)) .

وهكذا لم يحظ ابن حزم بنصيبه الأوفى من العلم حتى
انصرف إليه بكل عزائمه وأخلص له ولم يخلط به مارباً آخر
قط . حتى إذا تمت له أدواته فيه تفرغ لنشره بين الناس فنفع
الله به من شاء من خلقه في حياته ، ومن لا يحصيهم إلا هو بعد
مماته . وما أصدق كلمة ابن حزم في نفسه :

مناي من الدنيا علوم أبثها	وأشرها في كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي	تأسى رجال ذكرها في المحاضر ^(٣)
كذلك كان رحمه الله .	

(١) المفري ١ : ٣٥٨

(٢) إرشاد الأريب .

(٣) الصلة لابن بشكوال ص ٤٠٨ رقم الترجمة (٨٨٨) .

انصرف ابن حزم إلى الطلب وأقبل على دراسة العلوم الشائعة لعصره من المنقول والمعقول حتى أربى فيها على الغاية ، فحفظ القرآن والسنن والآثار ، وطالع التاريخ والأخبار وكتب الفلسفة . وقد متّع بحافظة نادرة المثال حتى قال اليسع بن حزم الغافقي : « أما محفوظ أبي محمد فبحر عجاج وماء شجاج ... لقد حفظ علوم المسلمين وأربى على كل دين ... »^(١) وكان - على ما قال الذهبي - إليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر . وشهد الغزالي بأن كتابه (في أسماء الله الحسنى) يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه . برز على فحول العلماء بالأندلس حتى تفرد دونهم بميزات وكان - على حد قول صاعد - أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حفظه من البلاغة والشعر ومعرفته بالسنن والآثار . وقال الحميدي : « كان أبو محمد حافظاً للحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، متفنناً في علوم جمة ، عاملاً بعلمه ، مارأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين » .

(١) تذكرة الحفاظ ، العجاج : المتلاطم ، الشجاج : الغزير الدفاق .

ولأبي مروان بن حيان : « كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعليم القديم من المنطق والفلسفة » . وقال الذهبي : « ابن حزم رجل من العلماء الكبار ، فيه أدوات الاجتهاد كاملة ^(١) » تمثل ابن حزم كل هذه العلوم التي درسها وصار له في كل منها رأي واجتهاد ، وترك في أكثرها تواليف جمة ضخمة تدل على ثروته الواسعة فيها وتمكنه القوي من ناصيتها ، وكان له - إلى ذلك - طبع حاد وصراحة متناهية ومعارضة قوية لمخالفيه ، حتى تبرم به الفقهاء والسلطين فطاردوه بأنواع المقاومة من سجن ونشريد وإحراق كتب ونهي الناس عن سماعه حتى صار في الأندلس أحق من المتنبي بالكلمة المشهورة : « مالى الدنيا وشاغل الناس » لقد ملأ ابن حزم المغرب كله بكتبه وردوده وأدبه وجدله ومذهبه ، وشغل أهله طرفاً صالحاً من حياته وأحقاباً طوالاً بعد مماته حتى لكأنه أمة وحده لا فرد من أمة ، وبحق ما قال فيه الفتح بن خاقان :

« ما تمت به الأندلس أن تكون كالعراق ، ولا حنت الأنفس معه إلى تلك الآفاق ^(٢) » ، وما أدراك ما العراق يومئذ :

(١) تذكرة الحفاظ

(٢) مطمح الأنفس ص ٦٣ .

عالم يعجج بحضارة ما رأى التاريخ لها مثيلاً فيما سبق ، ونهضة علمية ما حلم بمثلها إنسان .

ومن فرد بالذكر أسلوبه في حياته مع الناس ، بعد الكلام على مذهبه .
وخير ما يعرفك بعبقريته ومكانته أن تطالع بإيمان أيّاً شئت من آثاره القليلة الباقية في الدين أو الأدب أو الكلام ، فستجد ثمة بحراً زاخراً من العلم ، وطرقاً متشعبة من المعارف يضل سالكها ، إلا أنك واجد ابن حزم - على هذا كله - متمكناً من موضوعه ، قابضاً على ناصيته ، متصرفاً فيه تصرف الفارس في الحلبة ، وتلك صفة نادرة في العلماء الواسعي الثقافة ، فأكثرهم ينتشر عليه أطراف موضوعه فتوجهه بدل أن يوجهها . يأخذ بيدك فلا يزال بك موغلاً في أغوار البحث ينهبك إلى ما يشاء ويصرفك عما يشاء ، حتى يوصلك إلى الهدف الذي نصبه لك قبل البدء ، فابن حزم صاحب طريقة متقنة ومنهج مضبوط منطقي متزن . وستجد مصداق هذا بوضوح إذا وصلت إلى رسالته (في المفاضلة بين الصحابة) .

خصه الله بالتعمق والغوص على الأسرار في كل ما يقرأ ويسمع ويرى ، فبينما تراه في كتابه (طوق الحمامة) عالماً من أساطين علماء النفس ، الخبيرين بدخائلها ، الغائصين على أسرارها

الدارسين لمظاهرها وبوادرها وعواقبها ، تراه في بحوثه في كتاب
(الفصل في الملل والأهواء والنحل) واحداً من علماء الكلام البارعين ،
ذوي الحجة الدامغة والذهن اللقن ، جدلاً محنكاً لو حاول أن
يريك الليل في رابعة النهار لفعل ، إذا بك تراه في كتابه «المحلى»
فقيهاً مجتهداً ذا بصر ثاقب في معاني القرآن والسنن ، مستنبطاً
دقيقاً لأحكام الدين وفروع الفقه ، واسع الإلمام بطرق المذاهب
الفقهية خبيراً بحجج الشافعية والمالكية والحنفية ، مواهبه أقصى
ما يتسمناه العلماء : فكر ثاقب ، وبصر نافذ ، وملاحظة دقيقة ،
ونبل نفس ، يزين ذلك كله إقامة إلى جانب الصدق طول حياته .
ليس للظاهرية مثله في جميع العصور وأكاد أقول : مارأيت
أحداً بعد الصدر الأول من الأئمة ، فهم الشريعة حق الفهم ، وأفهمها
بإخلاص وصدق وحاسة مثل رجلين : ابن حزم هذا في المغرب وابن تيمية
في المشرق ، أرسلهما الله على أهل الدس والدخائل الخبيثة ، الذين
أرهبوا جسم الإسلام بما حشوه من بدع المجوسية والنصرانية
واليهودية ، فكانا عليهم وعلى ما أتوا به ، صاعقة مثل صاعقة عاد
وتمود .

ألقيا عن الإسلام ما علق به ولقيا في سبيل ذلك من الأذى
والاضطهاد ما يكرم الله به كل مصلح مخلص ، حتى أبرزاه أبيض

نقياً كما بدأ فجزأهما الله خير الجزاء .

ملاً ابن حزم بعد موته كتب الفقه والحديث والتفسير ،
فقلما يؤلف مؤلف في هذه الفنون إلا اعتمد على مؤلفاته أو
استشهد بأقواله أو ذكر مذهبه . وهو في حياته ما اذخر وسعاً
في الإحاطة بكل ما وصل إليه حتى كان له رأي في المصادر
الأمهات نحن عارضون له بعد قليل .

ومن الحتم علينا أن ننبهك إلى رسالة له في فضل الأندلس
أدرجها المقرئ في كتابه (نفع الطيب ج ٢ ص ١٢٥ - ١٢٨) لأنه
يطالعك على معلمة (دائرة معارف) كاملة لمعارف الأندلسيين وعلمائهم
ومؤلفاتهم ، بل إنه كتبها ليخبر بها المشرق كله - وهو منبع العلوم والعلماء -
بعلم الأندلس وعلمائها ، فلا يذكر مؤلفاً لمشرقي في فن إلا ذكر
ما يقابله لأندلسي في الفن نفسه مفضلاً الثاني على الأول ، ومن
الخير لك أن تطالعها لأنك مصيب بها فائدتين : الأولى أنك
تدرك بعض الإدراك مدى الأفق الذي خلقت فيه عبقرية ابن
حزم ، والثانية أنها تغنيك عن فهرس وتصنيف للعلوم والعلماء في
الأندلس حتى زمن كتابتها .

جاء في تذكرة الحفاظ للذهبي (ترجمة ابن حزم) :
« ذكر لابن حزم قول من يقول : (أجل المصنفات الموطأ) فقال :

« بل أولى الكتب بالتعظيم . (الصحيحان) و (صحيح)
سعيد بن السكن ، و (المنتقى) لابن الجارود ، و (المنتقى)
للقاسم بن أصبغ و (مصنف الطحاوي) و (مسند البزار) و
(مسند ابن أبي شعبة) و (مسند أحمد بن حنبل) و (مسند
ابن راهويه) و (مسند الطيالسي) و (مسند الحسن بن سفيان)
و (مسند سنجر) و (مسند عبد الله بن محمد المسندي) ،
و (مسند يعقوب بن شعبة) و (مسند علي بن المديني) و (مسند
ابن أبي غرزة) وما جرى مجرى هذه الكتب التي أفردت لكلام
رسول الله ﷺ صرفاً .

ثم بعدها التي فيها كلام غيره : مثل (مصنف عبد الرزاق)
و (مصنف أبي بكر بن أبي شعبة) و (مصنف بقي بن مخلد)
و كتاب (محمد بن نصر المروزي) و (كتاب أبي بكر بن المنذر
الأكبر ، والأصغر) . ثم (مصنف حماد بن سلمة) و (مصنف
سعيد بن منصور) و (مصنف وكيع) و (مصنف الفريابي)
و (موطأ مالك بن أنس) و (موطأ ابن أبي ذيب) و (موطأ
ابن وهب) و (مسائل أحمد بن حنبل) و (فقه أبي عبيد)
و (فقه أبي ثور) . »

فما ظنك بمن استحضر ذهنه على البديهة تلك الأمهات الفخام

لفن واحد ، واعرف بعد هذا أن المصنفات التي ذكرها لا تجدها في موضع واحد في أي كتاب أو فهرس فتحتته في المكتبة العربية ، ثم انظر مبلغ إحاطته وتمكنه وفحولة أحكامه التي يرسلها في كبار المصنفين الأئمة ، مقارناً بينهم وموازناً بين آثارهم الجليلة ، توهم بسعة علمه وبعد غوره ، حتى كان من اعتداده بنفسه - على تواضعه المشهور - أن قال في أحد أئمة الأندلس الكبار بقي ابن مخلد حين عرض لتفسيره : « أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره ، لا تفسير محمد بن جرير ولا غيره ^(١) » وقال عن مسنده : (مسند بقي روى فيه عن (١٣٠٠) صاحب ونيف ، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مسند ومصنف ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث ^(٢) » ، « وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين ممن ذكرهم ، أربى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ، وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد بن منصور ^(٣) » . ثم قال لافظاً نتيجة رأيه في بقي : « ^(٤) فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام وكان

(١) المقرئ ١ : ٥٨٠ ، وبقي ولد في رمضان سنة ٢٠١ هـ ومات

في جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ .

متخيراً لا يقلد أحداً و كان جارياً في مضمار البخاري ومسلم والنسائي .
سقت إليك أقواله في بقي لترى الفرق بينه وبين من شاركوه
في العلم الغزير من الأئمة العظام المجتهدين ، لقد تفرد بينهم بميزة
حسن الموازنة وإتقانها ، إنه فاضل بين مسنده ومصنفه وبين مسندات
غيره ومصنفاته فدل على سعة إحاطة بفنه ثم حكم له بالتفضيل ،
ثم وضعه حيث يستحق إلى جنب البخاري ومسلم والنسائي .
وكانه - رحمه الله - أحد مؤرخي العلوم والآداب على الطريقة
الفنية الغربية لعصرنا الحديث .

ولا تستغرب بعد هذا احتجاج العلماء على اختلاف فنونهم
بآراء ابن حزم الذي أسعده الله فيسر له كل ما يفتح العبقرية منذ
نعومة أظفاره . والذي هياً الله له « فجمع من الكتب في علم
الحديث والمصنفات والمسندات كثيراً ، وسمع سماعاً جماً ^(١) » . وتستجد
أمراً مألوفاً إذا فتحت أية رسالة صغيرة في الحديث أو غيره مثل
(الإجابة : لا يراد ما استدركته عائشة على الصحابة ^(٢)) التي أخرجناها
قبل شهور ، فوجدت مؤلفها الزركشي يستشهد بأحكام ابن
حزم في الحديث تخريجاً وتأويلاً وتجيماً وتوثيقاً .

(١) ابن بشكوال في الصلة .

(٢) طبع المكتبة الهاشمية بدمشق .

حسبك هذا وأعجب معي من هذه الذخيرة التي خلفها لنا
ابن حزم :

مصنفاته :

غرف ابن حزم من جميع العلوم التي كانت في متناوله ، وترك
كتباً في المنطق والفلسفة ، إلا أنه قد استكثر جداً من علوم الشريعة
وأوغل فيها لذا كانت أكثر مؤلفاته شرعية ، ومع أنه صنف
المصنفات القيمة في كل العلوم التي تحقق بها ، نراه قد عني العناية
كلها بأمر واحد هو تأييد المذهب الذي اعتمد عليه حتى آخر
حياته ، عنينا به مذهب الظاهرية : فقد نافع عنه وطلب له الحجج
والمؤيدات إلى أن مات وترك في ذلك آثاراً كثيرة تطفح
بنصرته والحكمة على خصومه وشرح أصوله وفروعه ، ببيان قوي
سهل محبوب يذكرنا ببلاغة الجاحظ ، ولا شك أن ابن حزم -
في سعة معارفه وبلاغة أسلوبه - هو جاحظ الأندلس بلا منازع .
ومن المؤسف حقاً أن يضيق علماء عصره وحكامه ، بحرية
ابن حزم وصراحته ، حتى أشهروا عليه وعلى كتبه حرباً عواناً
لا هوادة فيها ، وحتى بلغ بهم الغيظ أن أحرقوا كتبه علناً في إشبيلية
كما سيأتي ، فكان ما عرفنا اسمه من مؤلفاته قليلاً وأقل منه
ما وصل إلينا ومع ذلك فإنه شيء عظيم .

ولقد ذكر أبو مروان بن حيان في كلام له أنه كمل من مصنفات ابن حزم وقر بعير لم يجاوز أكثرها عتبة ياديته لزهد الفقهاء فيها ، حتى لأحرق بعضها بإشيلية ومزقت علانية . ١٠ هـ ولقد بلي من حساده بأصناف البلاء وشكاهم في شعره ، ومن قوله في إحراق ابن عباد كتبه :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمينه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائي وينزل إن أنزل ويدفن في قبوري
دعوني من إحراق رَقِّ وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من ستر^(١)

قال صاعد : أخبرني ابنه الفضل المكنى أبا رافع ، اجتمع عندي بخط أبي من تواليغه في الفقه والحديث والأصول والنحل والمثل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين ، نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة . ثم قال صاعد : « وهذا شيء ما علمناه من أحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر بن جرير الطبري ، فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفاً . ذكر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير :

(١) إرشاد الأريب ، نفح الطيب .

« أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر أحصوا أيام حياته مذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة ٣١٠ هـ وهو ابن ست وثمانين سنة ، فصار منها لكل يوم أربع عشرة ورقة . وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكرم عناية الباري به وحسن تأييده »^(١) اهـ .

ولا بد من التنبيه على أمر ذي بال وهو أن ابن حزم أدمج كثيراً من رسائله في كتابه الكبير (الفصل في الملل والأهواء والنحل) وتستطيع بقليل من مقابلة أسمائها بمواضيع فهرس الكتاب أن تجد شبهاً بين بعض مواضيع كتابه وبعض أسماء كتبه : كالسلام على تحريف اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، وكتوله في الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة ، وكرساته هذه (في المفاضلة بين الصحابة) وغيرها .

وإليك الآن أسماء كتبه التي وصلت إلينا مرتبة على حروف المعجم^(٢) :

(١) طبقات الأمم ، نفع الطيب ، تذكرة الحفاظ ، إرشاد الأريب ، أخبار الحكماء للقفطي

(٢) اعتمدنا في حصر مؤلفاته على المصادر الآتية : كشف الظنون ، تذكرة الحفاظ ، نفع الطيب ، إرشاد الأريب ، أخبار الحكماء ، طبقات الأمم ، مطمح الأنفس ، الفصل ، مجلة المجمع العلمي العربي - ابن خلكان ، المعلمة الإسلامية ، بروكيان ، وبعضها لم يذكره أحد وإنما عثرنا عليه عرضاً . وعلي من يريد معرفة أمّا كن وجودها اليوم أن يرجع إلى (بروكيان)

١ - إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد
(بروكلمان ، المعلمة الإسلامية)

٢ - الانفصال

هكذا ذكره في كشف الظنون ٢: ٢٥٨

٣ - أموية (كالأجوبة على المسائل المستغربة من البخاري
لابن عبد البر)

قال في كشف الظنون بعد ذكر كتاب ابن عبد البر : ولا يبي
محمد بن حزم عدة أجوبة عليه

٤ - الإلهام لا أصول الإلهام

(بروكلمان ، مطمح الانفس ، كشف الظنون)

مطبوع في مجلدين

٥ - الإلهام والسبب

طبع (بالقاهرة ١٩٠٨)

٦ - أملاق النفس

ذكره ياقوت

٧ - الاستقصاء

لم يذكره أحد وإنما عثرنا عليه في رسالة الزركشي (الإجابة
لايراد ما استدر كته عائشة على الصحابة) (ص ٢٩ طبع المكتبة
الهاشمية بدمشق)

٨ - أسماء الصحابة الرواة وما لكل منهم من الأحاديث
(بروكلمان ، الذيل)

٩ - أسماء الله الحسنى
(بروكلمان ، الذيل)
قال الفزالي : « وجدت في أسماء الله الحسنى كتاباً ألفه أبو
محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه »
تذكرة الحفاظ

١٠ - الأصول والفروع
(بروكلمان ، الذيل)
١١ - اظهار تبديل اليهود والنصارى للنوراة والتنجيل وبيان
تناقض ما يبدعهم من ذلك مما لا يمكن التأويل^(١)
(بروكلمان ، الذيل ، كشف الظنون ،
ارشاد الأريب)

١٢ - الإمامة والسياسة
في قسم سير الخلفاء ومراتبها والتدب والواجب منها (ياقوت ،
المقري) واسمه في المقري : الإمامة والخلافة .

١٣ - الإيصال إلى فهم كتاب (الخصال الجامعة لمحصل^(٢)
شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام) [والسنة والاجماع]
(بروكلمان ، الذيل)

قال في كشف الظنون بصدد الكلام على كتاب (الخصال
الجامعة لمحصل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام) :
« شرحه ابن حزم وسماه (الإيصال إلى فهم كتاب الخصال)

(١) في معلمة الإسلام : « تبديل اليهود .. » بجذف كلمة إظهار

(٢) في بعض المصادر : لجل ولعله تصحيف .

وهو شرح كبير أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في مسائل الفقه ودلائله « زاد ابن خلكان : » والحجة لكل طائفة وعليها وهو كتاب كبير .

قال الإمام الوزير أبو محمد بن العربي (أحد كبار تلاميذ ابن حزم القارئين عليه أكثر تواليفه) : كان عند الإمام أبي محمد بن حزم كتاب الإيصال في أربعة وعشرين مجلدًا بخط يده ، وكان في غاية الإدماج . إرشاد الأريب .

١٤ — البيان عن حقيقة الإيمان (الذيل)

١٥ — النعيق في نقد زكريا الرازي في كتابه (العلم الإلهي) (الذيل)

أشار إليه ابن حزم في كتاب الفصل : ١ : ٣

١٦ — التقريب لمروء المنطق (الذيل ، صاعد ، كشف الظنون)

والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية ، لا بالفاظ الفلاسفة . جاء في كشف الظنون (١ : ٣١٩) : « تقريب في المنطق لابن حزم الظاهري : وهو مختصر جعله مدخلًا إليه وأورد الأمثلة الفقهية بالفاظ عامية بحيث أزال سوء الظن عنه » . وقد عاب هذا الكتاب كثير ممن ترجعوا له فقال صاعد في (طبقات الامم ص ١١٨) :

« بسط فيه القول على تبين طرق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية وخالف (أرسطاطاليس) واضع هذا العلم في بعض أصوله مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض في كتابه . فكتابه من أجل هذا كثير الغلط ، بين السقط . » وقال أبو مروان بن حيان (إرشاد الأريب ترجمة ابن حزم) : « وله في بعض تلك الفنون (يعني المنطق والفلسفة) كتب كثيرة غير أنه لم يخل فيها من غلط وسقط لجرائته في التسور على تلك الفنون لاسيما المنطق ، فإنهم زعموا أنه زل هنالك ، وضل في شكول المسالك ، وخالف أرسطاطاليس واضعه ، مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض . »

(الذيل) وفي بعض المصادر :
(التلخيص والتخليص)

١٧ - الذب عن لوجه النخب

في المسائل النظرية وفروعها التي لائن عليها في الكتاب والحديث .

١٨ - شوير القباس (الذيل)

١٩ - التوفيق الى شارع النجاة باقتصار الطريق (الذيل)

٢٠ - الجامع في صحيح الحديث باقتصار الاسانيد (الذيل)

زاد ياقوت : والاقتصار على أصحها واجتلاب أكمل ألفاظها وأصح معانيها .

٢١ - جهررة الانساب (بروكلمان ، المعلمة الاسلامية ، كشف الظنون)
عينت المعلمة الاسلامية وضع هذا الكتاب في سنة ٥٥٠ هـ
وذكرت أن ابن خلدون يعتمد عليه ويذكره كثيراً في كتابه .
نشر وترجم في مدريد عام ١٨٩٢

وجاء في النشرة الشهرية لدار الكتب (يولية ١٩٣٨) عن
هذا الكتاب ما يلي :

أوله : (الحمد لله مبيد القرون الأول ، ومنزىل الدول ،
خالق الخلق ٠٠٠) صدره بجملة من الأحاديث الدالة على فضل
النسب ، وبين أن من فوائده اختيار الخليفة من القرشيين ،
وذكر باباً في أقسام الفن جملة . ثم ذكر أولاد عدنان من ولد
إسماعيل ، وأولاد كنانة ، وأولاد النضر ، وأولاد فهر ، وأولاد
عبد المطلب ، وأولاد أبي طالب وغيرهم على سبيل الإجمال ، ثم
ذكر قبائل العرب وأنسابهم وبطونهم وأفخاذهم وما تفرع منهم^(١)

٢٢ - الحدود^(٢)

٢٣ - الدرر في تدقيق الكلام فيما يلزم الإنسان اعتقاده
والقول به في الملة والنحلة باختصار وبيان (الدليل)

(١) نسخة دار الكتب هذه مأخوذة بالتصوير الشمسي عن الأصل

المخطوط الخاص بالأستاذ بروفنسال .

(٢) تهذيب التهذيب ٧ : ١٨٥

٢٤ - رسالته عنه حكم من قال : ان أرواح أهل الشقاء معذبته

الى يوم الدين (الذيل)

وفي الجزء الثالث من (الفصل) ص ٨٣ هذا العنوان :
بقاء أهل الجنة والنار أبداً .

٢٥ - رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سواء التعنيف ؟

كذا ذكر بروكلمان في (الذيل)

٢٦ - السيرة النبوية (الذيل ، تذكرة الحفاظ)

قال الذهبي : في مجلد .

٢٧ - شرح أمالي الموطأ والكلام على مسائله (الذيل ، ياقوت)

٢٨ - المصارع في الرد على من قال بالتقليد (الذهبي ، ياقوت)

في إرشاد الأريب : المصارع والرادع على من كفر أهل
التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد .

٢٩ - طوق الحمامة في الألفه والآلاف .

أشهر من أن يذكر وطبع مؤخراً بدمشق (١٣٤٩ هـ) والغريب
أن صاحب كشف الظنون ذكر بهذا الاسم كتاباً للسيوطي وأهمل
كتاب ابن حزم . والمطبوع من هذا الكتاب (في لندن ١٩١٤ م
ثم في دمشق) هو مختصره حسبما أثبت في آخره

٣٠ - الفصل في الملائكة والبهائم والنمل

معروف مطبوع في خمسة أجزاء ، ذكر الذهبي في (تذكرة الحفاظ) أنه ثلاث مجلدات

وهو على ما جاء في إرشاد الأريب - وإليه أميل - ست مجلدات وقد قرأ منها ابن العربي خمسة فقط والظاهر أن السادس مفقود .

٣١ - فصل في معرفة النفس بغيرها وجرها بذاتها (الذيل)

٣٢ - فصل هل الموت آلام أم لا (الذيل)

٣٣ - في الأدب جماع ومسائله (على أبواب الفقه) (الذيل)

٣٤ - في الاعتقاد (تذكرة الحفاظ)

رسالة نقضها أبو بكر بن العربي .

٣٥ - في الأدب مائة (الذيل)

لعله الذي مر باسم (الإمامة والسياسة) ولا بن حزم فصل في

الإمامة في كتابه الكبير (الفصل) ٨٧: ٤

٣٦ - في الرد على ابن تغريلا البرهوتي (الذيل)

٣٧ - في الرد على الرهائف منه بعد ؟ (الذيل)

٣٨ - في الغناء الملهي : أمباح هو أم محظور (الذيل)

٣٩ - في مسألة السكيب ؟ (الذيل)

٤٠ - في المفاضلة بين الصحابة (الذيل ، مجلة المجمع العلمي العربي ١٢ - ٧٠٤)

هي التي ستقرونها بعد .

٤١ - فيما غالف فيه أبو حنيفة ومالك والشافعي جمهور العلماء وما

انفرد به كل واحد ولم يسبق إلى ما قاله .

قال الذهبي (تذكرة الحفاظ) : « ذكر اسم هذا الكتاب هو

في أثناء الفرائض من المحلى . ولا ريب أن الأئمة الكبار تقع لهم

مسائل ينفرد المجتهد بها ولا يعلم أحداً سبقه إلى القول بتلك المسألة ،

قد تمسك فيها بعموم أو بقياس أو بحديث صحيح عنده والله أعلم . »

٤٢ - كشف الالتباس لما بين الظاهرية وأصحاب القياس (الذيل)

وفي بعض المصادر : كشف الالتباس بين أصحاب الظاهر وأصحاب

القياس .

٤٣ - المحلى شرح المحلى (الذهبي ، الذيل)

في ثمانية مجلدات

٤٤ - المحلى بالآثار : في الفقه

مطبوع معروف ، قال الذهبي « على مذهبه واجتهاده » وروى

قول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « ما رأيت في كتب الإسلام

في العلم مثل (المحلى) لابن حزم و (المغني) للشيخ الموفق »

(تذكرة الحفاظ)

٤٥ — مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرغائب :
صغير طبع مراراً

٤٦ — مراتب الأدب جماع (الذيل)

٤٧ — مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلمها بعضها ببعض
(الذيل ، مطمح الانفس ، كشف الظنون ، الفصل)

٤٨ — منتقى الأدب جماع (الذيل)

ذكره الذهبي في التذكرة وزاد ياقوت : « وبيانه من جملة
ما لا يعرف فيه اختلاف »

٤٩ — النسخ والمنسوخ (الذيل)

طبع في مصر بهامش تفسير الجلالين .

٥٠ — النبذة الطافية في أصول أعظم الدين (الذيل)

٥١ — النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية

عن أقوال أهل البدع والفرق الأربعة المعتزلة والمرجئة والخوارج
والشيعة . (الذيل)

٥٢ — نقط العروس (الذيل ، معلمة الاسلام)

صغير جمع فيه كل غريبة ونادرة مفيدة ، وهو — على ما جاء

في معلمة الاسلام — في تواريخ الخلفاء .

٥٣ — نكت الاسلام نشر وترجم إلى الإسبانية في (غرناطة

جزء رآه أبو بكر ابن العربي ورد عليه قال : « فيه دواهي
فجردت عليه نواهي » تذكيرة الحفاظ

. . .

هذا ما وصل اطلعنا إليه ولا شك أن له كتباً كثيرة
ضاعت أسماؤها أيضاً ، فالمقري يذكر عرضاً (٢ : ١٣٦) أن له
كتباً جمة في التواريخ مثل (نقط العروس) . ولو أن مؤرخاً
لازمه في حله وتراحاله لروى لنا أسماء مجلدات كثيرة ما نعلم
الآن عنها شيئاً .

مات صاحب هذا الكنز الزاخر ، بعد أن ملأ الأندلس
حركة فكرية عنيفة أثارها سلبية وإيجابية ، وجعل مجالس العلم
وأقطاب الفكر معسكرين أنصاراً وخصوماً . ولكن حيوية
ابن حزم لم تنقطع بموته ، بل بقيت مستمرة تعمل عملها بعده
زمناً طويلاً . وإن شئت فامرّد كتاب (التكملة) لابن الأبار أو
(الصلة) لابن بشكوال ، أو (بغية الملتبس) للضيبي ، أو غير هذه
الموسوعات ، لترى : كم من أصحاب العلم والفكر حملوا أنفسهم
على الرد عليه أو الانتصار له ، وهذا غاية ما يوثّره ذو رسالة
سامية من الآثار .

د - مذهبه

لم يعتنق ابن حزم في الفقه المذهب الشائع في الأندلس لعهدده ، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ؛ وإنما اتخذ فيه مذهب الإمام الشافعي ، ووفق يدافع عنه حتى عرف به بين العلماء ونصب نفسه هدفاً لأتباع غيره من المذاهب المستفيضة بالأندلس ، « فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء وعيب بالشذوذ »^(١) ولا جرم ففي جيلة ابن حزم ثورة فطرية على التقليد ، فلما اشتد واستحكم عدل عن مذهب الشافعي واجتهد لنفسه على قواعد أهل الظاهر ، ولزم دعوة الظاهرية ينشرها ويؤيدها في أكثر تصانيفه وينافح عنها خصومها بقوة وعنف ونشاط حتى مات رحمه الله .

إمام هذه الطائفة وأول من قال بالظاهر هو داود بن علي الأصفهاني المتوفى سنة (٢٧٠ هـ) « أخذ بالكتاب والسنة وألغى ما سوى ذلك » من رأي وقياس . وألف كتباً كثيرة في الفقه على أصوله بلغت قريباً من المئتين ، على فضل وعلم وورع وصدق . وعلى خطته درج ولده محمد وتتابعت بعدهما أئمة الظاهريين^(٢) .

(١) إرشاد الأريب .

(٢) انظر أئمة المدرسة الظاهرية وما خلفوا من الكتب في فهرست

قال الشهرستاني : « ومن أصحاب الظاهر مثل داود الأصفهاني وغيره ممن لم يجوز القياس والاجتهاد في الأحكام وقال : (الأصول هو الكتاب والسنة والإجماع فقط) ومنع أن يكون القياس أصلاً من الأصول وقال : (أول من قاس إبليس) وظن أن القياس أمر خارج عن مضمون الكتاب والسنة ، ولم يدر أنه طلب حكم الشرع من مناهج الشرع ، ولم تنضبط قط شريعة من الشرائع إلا باقتران الاجتهاد به ، لأن من ضرورة الانتشار في العالم : الحكم بأن الاجتهاد معتبر . وقد رأينا الصحابة كيف اجتهدوا وكم قاسوا ، خصوصاً في مسائل الميراث من توريث الإخوة مع الجد وكيفية توريث الكلاله وذلك مما لا يخفى على المتدبر لأحوالهم . . . »^(١)

وقد ترك الظاهريون المشكلات التي لم تخطر للنبي ﷺ ولا لأصحابه من حملة السنة ووقفوا عندها ، وانتشر مذهبهم بعض الانتشار في العراق وفارس وخراسان ، وكان منهم أناس في بلاد الشام ، في حين لم يكن بالأندلس منهم لعهد ابن حزم غيره . وقد حفظ الشعرا في ميزانه والرازي في تفسيره والمقرئ في أنماطاً وقضايا للظاهرية فانظرها ثمة وعدوا ممن قال بالظاهر الإمام

أحمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة ، فهو بتركه القياس وأخذه
بالمأثور ووقوفه عند النصوص أشبه الظاهرية .

جاء في رسالة للشيخ محمد الشطي . « ولما كان الإمام أحمد
من أئمة الظاهر كداود بن علي الظاهري وابن حزم وغيرهما التزم
البعض من متقدمي فقهاء الحنابلة نقل أحكام مذهب داود وغيره
ككتاب رؤوس المسائل لأبي الخطاب محفوظ والرعايتين
الصغرى والكبرى لابن حمدان وغيرهما من الكتب المعتمدة
في المذهب ^(١) . »

والظاهريون بوقوفهم عند النصوص وطرحهم القياس كانوا
إلى الرخصة والتسامح في بعض المسائل وإلى الشدة في بعض
حتى إن المرء ليعجب من بعض أحكام يطبقونها ، فمن أمثلة ذلك :
أنهم يوجبون غسل الإيذاء من ولوغ الكلب (لظاهر الحديث)
ولا يغسلونه من ولوغ الخنزير ^(٢) لعدم وجود نص في الغسل من
ولوغ الخنزير على التعمين .

(١) مجموع يشتمل على رسالتين الأولى في مذهب داود الظاهري
جمع محمد الشطي والثانية في مسائل شيخ الإسلام ابن تيمية جمع برهان
الدين ابن قيم الجوزية ص ٣ (دمشق سنة ١٣٣٠ هـ مطبعة روضة الشام)

(٢) المصدر السابق ص ٧

وهم يعدون الكلب والخنزير طاهرين ، وتطهر جلودهما بالدباغ^(١)
ولا يشترطون الطهارة للصلاة على الجنازة^(٢) .

ويمجزون للجنب قراءة القرآن والجلوس بالمسجد^(٣) .
ولهم إزاء أمثال هذه الرخص تشديدات ألجأهم إليها الأخذ
بحرفية النصوص ، من ذلك :

أنهم لم يشترطوا في البيع صيغة ما كبعض المذاهب واكتفوا
بمجرد التراضي ، وهذا يسر ظاهر ، إلا أنهم أوجبوا فيه الإشهاد^(٤)
فرجع البيع في مذهبهم أشد منه في المذاهب الأخرى .

وأنهم جعلوا أكل لحم الجزور ناقضاً للوضوء^(٥) أخذاً بالفاظ
الحديث المشهور ، والرسول إنما أمر أصحابه بالوضوء بعد أكل لحم
الجزور سترأ على الذي أحدث .

وأنهم أوجبوا غسل اليد ثلاثاً بعد النوم وحكموا بنجاسة الماء
الذي مسته يد مستيقظ لم يغسل^(٥) .

وإليك هذا المثال الأخير لتعرف طراز أخذهم بالظاهر :
« الماء ينجس إذا بال فيه بائل لحديث (لا يبولن أحدكم في
الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه) فلو بال في إناء وصبه في الماء

(١) المصدر السابق ص ٧ أيضاً (٢) ص ١٠ (٣) ص ٢٠

(٤) ص ٩ (٥) ص ٦

أو بال على شيء فجرى البول إلى الماء فلا ينجس!!^(١)»
وأظن في هذا القدر كفاية في إطلاعك على أنماطهم في
النظر ، وأصبح مذهبهم سمحاً سهلاً في أمور وشديداً في أمور .
ومن الطريف أن تطلع على المسائل التي جمعها الشطي في مذهب
داود وتقابلها بأمثالها في المذاهب الأخرى . وقد جاء في ختام الرسالة
المذكورة : « ومن أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب
الإمام ابن حزم الظاهري وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي^(٢) » .
ولم يخل الأمر من حملة عنيفة يسوقها عليهم خصومهم : شأن
كل مذهب ، فترى القاضي أبا بكر بن العربي يصمهم بأنهم :
« أمة سخيصة تسورت على مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم
تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حيث تقول : لا حكم إلا
الله » وقال عنهم :

« يقولون : (لا قول إلا ما قال الله ، ولا نتبع إلا رسول
الله ، فإن الله لم يأمر بالاعتداء بأحد ولا بالاهتداء بهدي بشر)
فيجب أن يتحققوا أنهم ليس لهم دليل وإنما هي سخافة وتهويل »
ثم قال يوصي أصحابه بالطريق إلى تعجيزهم : « فأرصिकم وصيتين :
ألا تستدلوا عليهم ، وطالبوهم بالدليل ، فإن المبتدع إذا استدلت

عليه شغب ، وإذا طالبت به بالدليل لم يجد إليه سبيلاً .
فأما قولهم : (لا قول إلا ما قال الله) فحق ، ولكن أرني
ما قال الله . وأما قولهم : (لاحكم إلا الله) فغير مسلم على
الإطلاق ، بل من حكم الله أن يجعل الحكم لغيره مما قاله
وأخبر به ، فصح أن رسول الله ﷺ قال : « وإذا حاصرت
أهل حصن فلا تنزلهم على حكم الله فإنك لا تدري : ما حكم
الله ؟ ولكن أنزلهم على حكمك » . وصح قوله : عليكم بسنتي
وسنة الخلفاء . . . الحديث ^(١) اهـ

هذا ولست بصدد شرح آراء الموافقين والمخالفين ، فإن جمود
المذهب على ظاهر النصوص أورثه بطئاً في حركة انتشاره حتى
لم يعد طائفة خاصة ، ثم انقرض مع الزمن ، ولم يوزق ما رزقت
بقية المذاهب من الانتشار ، لفقدانه المرونة الضرورية لكل زمان
ومكان ، فاندثر ليبقى الأنسب .

خذ أياً شئت من كتب ابن حزم في الدين : الإحكام ، أو
المحلى أو غيرهما ، فستجد أينما قرأت أمثلةً من نظره الظاهري
ووقوفه عند حرفية النصوص ، انظر مثلاً نقده لـ (فليزيم الجماعة)
ص ١٩١ فتراه نقداً ظاهرياً يتعلق بالألفاظ لا يحيد عن مدلولها ،

وكذلك تقدم القول المعروف (الشيطان مع الواحد) فقد رده
بأن أفراد الرجل في بيته غير منكر وقد قال رسول الله ﷺ
(یرحم الله أباً ذراً یمشی وحده ٬ ويموت وحده ٬ ويبعث وحده) ٬
ومالي أشرع في ضرب الأمثلة ورسالة (المفاضلة بين الصحابة)
هذه من أولها إلى آخرها بحث محكم على قواعد مذهبه الظاهري ٬
وقد وفق فيها وفي طريقة معالجة موضوعها توفيقاً يشعر بلذته
القارئ المدقق .

وكان القدر وضع ابن حزم بموضع المخالف المجاهد ٬ فاتباعه
الشافعي أول الأمر جر عليه عداوة الفقهاء ونشنيعهم ٬ والقول
بالظاهر بعد ذلك ٬ ألّب عليه وعلى نحلته أقواماً لا قبل لهم به ٬ ومع هذا
استصغر الأذى في سبيل ما يرى أنه الحق وصمد خصومه وكافهم
ولم يلق السلاح من يده حتى فارق الحياة ٬ بعد أن ملأ المغرب
بدعوته وهو فرد ٬ كما اعترف خصمه العنيد أبو بكر بن العربي
على ما يأتي

ومن قصيدة لابن حزم تراها في موضع آخر آيات يشرح
فيها وجهة النظر الظاهرية وهي :

فقلت : هل عيهم لي غير أني لا أقول بالرأي إذ في رأيهم أفن
وأنتي مولع بالنض لست إلى سواه أنحو ولا في نصره أنهن

لا أنثني نحو آراء يقال بها في الدين ، بل حسبي القرآن والسنة
وخير لنا في وقفك على جهاده وما تحمله في سبيل دعوته ،
أن نسوق إليك قول أبي مروان بن حيان ، فقد لخص لنا مجمل
ما لاقى في حياته من اضطهاد وإعراض في سبيل مذهبه ، قال :
« ثم عدل إلى الظاهر فنقحه وجادل عنه ، ولم يكن يلطف
صدعه بما عنده بتعريض ولا يرقه بتدريج ، بل يصك به معارضة
صك الجنادل وينشقه إنشاق الخردل ، فينفر عنه القلوب ويقع به
الندوب ، حتى استهدف إلى فقهاء وقته ، فتمالؤوا عليه ، وأجمعوا
على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا
عوامهم عن الدنو منه ، فطفق الملوك يُنصرونه (يبعدونه) ويسيرونه
عن بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره وهي بلدة من بادية لبلة
وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع : يدث علمه لمن ينتابه من

بادية بلدة من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، يسمعهم
ويفقههم ويدارسهم ، كل من مصنفاته وقر بعير ، لم يجاوز أكثرها
عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها ، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ومنرت
علانية الخ »

على أنه قد وجد بعض التأييد من حاكم جزيرة ميورقة :
العباس بن أحمد بن رشيق ، فقد استدعاه إلى جزيرته بعد أن كانت

الفتيا فيها على مذهب مالك فلبى الدعوة ودخلها بعد سنة ٤٣٠ هـ
فنشر مذهب الظاهرية في كنفه حتى فشا ، وكانت تقوم المناظرة
بينه وبين خصومه في مجلس الحاكم نفسه ، حتى إن أبا الوليد بن
البارية الميورقي الفقيه المالكي لما ناظره بمجلس ابن رشيق ، لم يستطع
الوقوف لابن حزم وأتى ببعض الهفوات فأغلظ عليه القول ابن
حزم ، وعظم عليه ما أتى ، ثم سجنه ابن رشيق أياما ولم يطلقه
حتى أشهد عليه بالتوبة . وتركه يخرج إلى الحج فتوفي في وجهه .
هذه هي كل الحماية التي ظفر بها ابن حزم .

ومن الغريب أن بعض الناس استغلوا نشيجه لبني أمية فرموه
ببغض علي أي بالنصب . وما أكثر ما يلقي من نصب نفسه لقول
الحق والصدق به ، بمزاج مثل مزاج ابن حزم صراحة وصدقا وعدم
مبالاة وإهمالا للعواقب تجر عليه ما جرت .

وليس لأصحاب مذهب الظاهر كتب تعرف منها آراءهم
وأصول مذهبهم إلا ما سمح ببقائه الدهر من كتب ابن حزم حتى قيل على
ما مر بك آنفا : « من أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب
الإمام ابن حزم الظاهري وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي »
ولا ريب أن ابن تيمية عيال في هذا على ابن حزم .

هذا وقد أطبق الذين ترجوا له على ورعه وتدينه وزهده

وتحريره للصدق ، وتواضعه ولين جانبه ، مع عمل صالح وجرأة نادرة ، وصبر طويل واحتمال في ذات الله ، إلى فضائل جمة . وأنعم بها من مزايا لا تكمل إلا لعدد قليل يبعثهم الله في أحقاب متطاولة ، ليقرّبهم حقاً أضيع ويهدم باطلاً أشيع ، ويرجع عباده إلى دينهم الحق ، ويمتحنهم الله بما امتحن به أنبياءه الكرام عليهم الصلاة والسلام من أذى الناس وحسدهم ، وعذابهم ، فيحملون ذلك كله بصبر كبير وصفح جميل ويهدي بسيرتهم هذه أكثر مما يهدي بعلومهم .

وإنك لتلمس خوف ابن حزم من الله واليوم الآخر ، في كل ما تقرأ له ، بلغت الحماسة لدينه من نفسه كل مبلغ ، وملكته عليه وقته وتفكيره فطرح الدنيا وجاهها وغرورها ونبذ المناصب والوزارات لينشر الدين غريباً مشرداً طريد سجون وحكام ووشايات . وهذا ما تفعله العقيدة إذا حلت قلباً كبيراً ونفساً مخلصاً . وقف قليلاً عند ما ختم به رسالته (طوق الحمامة) ليغمرك جانب من هذا الإيمان العظيم ، لقلب طافح بشكر الله ، قال - وقد عرض لما أصابه من النكبات وقد مر بك أول هذا القول ص ٣٠ - : « لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا ، وإن الذي أبقى لا أكثر مما أخذ ، والذي ترك أعظم

من الذي تحيف ، ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا نحمد
ولا يودى شكرها ، والكل منحه وعطاياه ، ولا حكم لنا في
أنفسنا ، ونحن منه ، وإليه منقلبنا ، وكل عارية فراجعة إلى معيرها
وله الحمد أولاً وآخراً وعوداً وبدءاً وأنا أقول :

إذا ما صح لي ديني وعرضي فليست لما تولى ذا اهتمام
جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين^(١) «



هـ - أدبه

أولى من هذا المكان ببيان أدب ابن حزم ، كتاب برأسه
يخصص لغرض أدبه الواسع العميق وتستجلى فيه صفاء نفسه الكبيرة
وخطرات فكره العجيب . ولكننا نريد أن نرسم لمترجمنا صورة
قريبة من الكمال بقدر الإمكان ، فلا مناص لنا إذن ، من
الإلمام بأدبه في كلمة موجزة .

الأدباء الموهوبون قليلون ، وربما لم يكن لبعض العصور
إلا أديب واحد ، بل ربما لم تظفر عصور متعاقبة بأديب ، والذين
يتركون لنا مرآة واضحة عن نفوسهم ومجتمعهم وينقلوننا بسحر
بيانهم وقوة روحهم إلى أعصارهم فنعايشهم ونخالطهم ونشعر بما شعروا
ونخلق في الآفاق التي خلقوا . . . هم صفوة هذا القليل . وأنا
لا أعرف من هؤلاء في القرون الخمسة التي تلت الهجرة غير اثنين
فقط : الجاحظ في المشرق وابن حزم هذا في المغرب ، على تفاوت
بين الرجلين وميزات لكل منهما على الآخر .

كلا الرجلين عالم متمكن في الدين ، إمام مجتهد في مذهبه ،
وكلاهما جادل وكافح ووضع الكتب والرسائل في نصرة مذهبه
ومهاجمة خصومه . وكلاهما كان من الفصحاء الأبناء الذين يمتزج
كلامهم بأجزاء النفس سهولة ورقة ، وتستعذبه الأذان تقطيعاً

ورنيناً . ثم كلاهما غرف من علوم عصره ما استطاع ، فكان رجل
دين وأدب واجتماع وفلسفة ومنطق وتاريخ وأخبار ونوادر .
وكلاهما اتي من حسد خصومه وكيد أعدائه ما عرضه للمحن
وأذى الحكام ، وأخيراً كلاهما ترك من تواليفه مكتبة عظيمة ضاع
أكثرها وبقي منها النزر اليسير ، دليلاً على سعة آفاقه وعظيمة ثقافته .
فأما ما يفترقان فيه فالمزاج : كان الجاحظ هادئاً ساكن الطائر
على دهاء ومصانة ، وكان ابن حزم صريحاً عنيفاً حاد المزاج
ذا لسان أمضى من سيف الحجاج . ثم هناك بعد ذلك ، عالمان
كبيران تنقل فيهما ابن حزم وتمتع حتى تمكن ولم نعلم للجاحظ
فيهما أثراً يذكر : الأول عالم الشعر فلقد كان ابن حزم شاعراً
بليغاً مرهف الحس بعيد الأثر في النفس ولم يتمتع الجاحظ من
الشعر في ورد ولا صدر ، والثاني عالم الحب فقد نهل منه ابن حزم
وعلى ، وشرب كأسه حتى الثمالة ، وبلا من أحواله وأعراضه وأحزانه
ومفارحه شيئاً كثيراً حتى لقد تفرد في المشرق والمغرب بالإغمال
فيه والغوص على أسرارهِ . وأكد أقول إنه فيه إمام مجتهد كما
هو في الدين إمام مجتهد . ولم يكن - فيما علمنا - للجاحظ في
هذا اللون من الحب نصيب .

وابن حزم على هذا لم ينزو انزواء العلماء ، بل عوضه الله

عن ربح عزلتهم وتأملاتهم نظرةً فاحصةً عميقةً ، وذكاءً سريعاً وقادراً ،
فنزل إلى الساحات والأسواق ، وغشي المجالس والمجتمعات ، وخالط
الفقهاء والعوام والصناع والنساء والعطارين والفتيان والأمراء والخلفاء ،
فترك لنا معارف زاخرة عن مجتمعه لا نجد لها في شيء من كتب التاريخ .
والغريب أن هذا كله محشور بين دفتي رسالة مختصرة عن كتاب في
موضوع الحب هي : طوق الحمامة . فما ظنك لو سلم لنا تراث ابن حزم
كله ، إذن لنعمنا بحياة خصبة نحيها حاملين في فردوسنا الأندلسي .
عرفنا ابن حزم كثيراً من أسرار الأسر النبيلة ووقائع
الغرام فيها على رغم الحجاب الغليظ والرقابة الدقيقة ، وأنهم إلى
التصون في علائقهم هذه أقرب منهم إلى التبذل ، كما أطلعنا
على مجتمعات النساء بباب العطارين في قرطبة . ولقد تكفل بفضح
الهوى الساحقة التي ارتطم فيها أناس نساك تنطعوا في نسكهم
وتكبروا به على المستورين ، فما هي إلا جولة حتى هبوا من
حالق صوامعهم إلى قيعان الفساد ، كل هذا بأسلوب قصصي ساحر
جذاب . والشيء الخطير حقاً هو أن ابن حزم حين يؤلف ،
يستمد من تجاربه الشخصية أكثر مادته ، لقد خاض الحياة
وتقلب في نعيمها وتمرغ في بأسائها وخبرها علواً وسفلاً خبرة العالم
النفسي الدقيق في ملاحظاته وتقييدها . لقد انعكست في فكره
وكتبه الأندلس كلها بأجناسها وعلومها وآدابها وعاداتها وسموها

وإسفافها وترفها وفتنها وأسرارها فجلاها لنا في مرآة صافية
لا تعلموها غيرة ولا صدأ .

وفق في بيان هذا كما وفق قرينه الجاحظ ، وما أظن تصوير
الجاحظ للحسود بعيدة عن ذهنك حين وصف تغير سحنته وتحول
لونه وخصوص عينيه^(١) . . . وجميع العوارض (الفسيولوجية) ، فوازنها
بما سيمربك من دراسة ابن حزم للتغيرات الطارئة على المرأة في
حضرة رجل أو الرجل إذا أحس امرأة ! في نبرة الصوت
وإطالة الكلام ، وتكلف الحركات . . . وإن تفوق ابن حزم في
هذا على صاحبه راجع إلى أن القرن الخامس في الأندلس أبسط
آفاقاً في الثقافة وألوانها من زمن الجاحظ

ولك أن تقابل بين وصف الجاحظ للحسد ووصف ابن حزم
له في رسالة (فضل الأندلس) لقد أحسن الرجلان تصويراً لأن
كلٍّ منهما يصف ما يعاني ويجد .

* * *

لم يصل إلينا من آثار ابن حزم في الأدب إلا القليل .
والظاهر أن له طائفة صالحة من الشعر حتى استطاع ابن بشكوال

(١) أنظر ذلك في رسائل الجاحظ ص ٥ طبعة الساسي .

أن يجمع له ديواناً على حروف المعجم^(١) . . .

وذكر هو في كتابه طوق الحمامة ص (١١٩) إتلاف صديق له جميع ما كتبه به من نثر أو شعر . وإذا عرفنا أن المقاطيع الصغيرة الباقية في طوق الحمامة ، هي من قصائد طوال في الأصل أدركنا مبلغ الضائع من شعره ، والذي في الطوق دون الألف من الأبيات ، وأنا أقدرها كاملة بعشرة آلاف بيت في موضوع واحد هو الحب .

وله في طبقات السبكي (١٨٤:٢) قصيدة طويلة بلغت أبياتها ١٤٠ أجاب بها ملك الروم «تقفور» عن رسالته التي أرسلها إلى المسلمين يهدد ويتوعد . والقصيدة تزخر بالقوة والتبكييت ، والفخر والوطنية ، والاعتداد بجميع أقاليم العرب . وقد أظهر فيها اطلاعه الواسع على التاريخ والجغرافية والملاحم ، وختمها بمدح الرسول ﷺ وتقريع من يسميهم (عبدة عيسى) والجزء بمزاعمهم على أسلوبه الخاص ، فانظرها في مظنتها .

لم يتكسب ابن حزم بشعره قط ، ولم يمدح إلا نادراً وكان

(١) قال ابن بشكوال في الصلة : وله في الآداب الشعر نفس واسع وباع طويل وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه . وشعره كثير قد جمعناه على حروف المعجم .

مدحه لأقرانه في الجاه والعلم فهو إذن يقول الشعر إرضاء لفنه الخالص
كما يقولون ، وتفريجاً لهمومه وأحزانه ، وترجماً عن نزواته وخليجاته .
ومع اشتغاله بالعلوم الدينية وغيرها ، لم يكن شعره ليشبه
في وجهه من الوجود ما يسمى (شعر الفقهاء) . وهو شاعر فحل
مطبوع قبل أن يكون فقيهاً وقبل أن يكون عالماً . والأدب
هبته الأصلية والعلم طارئ عليه ولم يؤثر فيه من الناحية الشعرية ،
بل لا نكون إلى الغلو إذا قلنا إن ابن حزم طبع العلوم والدين
والجدل والتأليف . . . بالطابع الأدبي الجميل . وإنه على كل حال
في الطليعة من بلغاء الأندلس شعراً ونثراً .

وعلة التفوق في جميع الموضوعات التي طرقها ابن حزم هو
أنه لا يعالج إلا ما أوسع به بحثاً ودرساً وتفكيراً فيه . أما في
الأدب خاصة فيرجع السبب في إجادته وسموه إلى أنه لم يصف
إلا ما شاهد وكابد وشعر به ، لم يكن عالمة على غيره في وصف
طبيعة أو ترجمة عاطفة أو شكوى أو سرور أو حزن . . . قال
في مقدمة الطوق :

« وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ولا أتخلي بجلي مستعار ^(١) » .

هذا هو السر في تأثير بلاغته وأخذها بجماع القلوب ونفاذها
إلى أعماق النفوس .

لغة ابن حزم من السهل الرقيق الممتنع ، لا يكاد يستعمل لفظة
غير مأنوسة ، وهو أبعد ما يكون عن الحوشي والتعقيد ، تقرأ له
في الأدب كتاباً بكامله مثل طوق الحمامة نثراً وشعراً فلا تكاد
تشعر بحاجة إلى الرجوع إلى المعاجم ، بعيد عن الصنعة المتكلفة ،
غني عن اللعب بالألفاظ ، أغنته عنها تلك البحور الدافقة على ذهنه
من المعاني الخصبه والعواطف الصادقة المشبوبة ، فليس إلا أن
يقول . وكثيراً ما كان يقول الشعر الجيد على البديهة بسرعة لا
تجارى .

وإذا لجأ إلى المجاز في بيانه ، أمتعك بأصدق وأقربه ثم حشد
فيه صوراً طافحة بالألوان الزاهية السارة . انظر إلى تصويره
آخرة الحب ، وغرور المرء بأوله :

كفتر بضحضاح قريب فزل فغاب في غمر المدود
تجد أنه تصوير أوضح من المحسوس ، ومجاز أصدق من الحقيقة ،
مع تلخيص بليغ لتاريخ الحب من جميع نواحيه ، وما أدر كنت
قط فهماً أعمق في بيان مزالق الحب من هذا .

ويريد أن يبين عن حال عاشق مقيم متمكّن لا يفصح عن
حبيبته على رغم ضناه ، فيطلب له مجازاً يقر رحاله فينتزع مراده
بلطف مما ترى العين وتسمع الأذن :

كخط يرى رسمه ظاهراً وإن طلبوا شرحه لم يبن
كصوت حمام على أيككة يرجع بالصوت من كل فن
تلد بفحواه أسماعنا ومعناه مستعجم لم يبن

وانظر تلطفه في تشبيه الهلال :

كحاجب الشيخ عم الشيب أكثره

وقوله في قوس قزح :

ولاح في الأفق قوس الله مكتسياً من كل لون كأذناب الطواويس
والبيت الأخير يعج بالألوان البراقة ، وقد أبدع فيه بما
لا مزيد عليه .

والغريب أن صاحبنا يلذ أن يحاكي أحياناً أرباب الصنعة للتسلية
فقط ، فيتكلف لذلك ما لو رامه أحدهم لجاء بغاية الاستكراه .
وأنت تعلم أن الأقدمين ما زالوا يعجبون من تشبيه امرئ القيس
بشيتين بشيتين في قوله :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي
ويقطعون لصاحبه بالانفراد في الإجادة حتى جاء بشار بيته :

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
ثم أتى المتكفون يقلدون فلا يبلغون ، وعن لابن حزم أن

بجاريهم فسبقهم إذ شبه ثلاثة بثلاثة في بيت واحد :

كأن الحيا والمزن والروض عطرأ دموع وأجفان وخد مورّد

بل شبه خمسة بخسمة في بيت واحد فأنى أبعد ما يكون من
التكلف وأقرب إلى الطبع وأحظى في الإجابة :
كأنني وهي والكأس والخمر والدجى ثرى وحيأوالدر والتبر والسنج^(١)
وانظر نظمه قصيدة أعجازها من معالقة طرفة بن العبد (طوق
الحمامة ص ٧٤) .

وفي ثنايا شعره حكم جيدة رمى بها طبع موات وبصيرة
نافذة ، أراد أن يبين عن أثر العادة وقوة تحكمها في الإنسان فقال :
فلو يتغذى المرء بالسّم قاته وقام له منه غذاء مجرب
وتأمل قوله :

أفعال كل امرئ تنبي بعنصره والعين تغنيك عن أن تطلب الأثر
وهل ترى قط دُفلى أنبتت عنبا أو تذخر النحل في أو كاره الصبرا
وما أسرع ابن حزم حين يلقي حكمه ، إلى الإتيان بالصورة
المقررة التي لا تدع مجالاً لريب الفكر وتردده ، هو مغرم بالصور
موفق في إجادتها وصدقها . وإنها لتستقر في الأذهان على الدهر
لاحكامها وقربها . ولقد قال الأول :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذيود
فلما أتى الشاعر العالم بالنفس المجرب في الحب ، أخذ المعنى

(١) كذا في الأصل (طوق الحمامة ص ١٥) ولعل التحريف عن

(السبيج) بالباء وهو الخرز الأسود .

(خاماً) فردده في نفسه وفكره ثم أخرجه بهذه الصورة :
بلى إن في قرب الديار لراحة كما يمسك الظمان أن يدنو الورد
والشطر الأخير آية في الروعة والسحر وكلمة (يمسك) منه
محط الإعجاز ، والتشبيه هنا هو الذي يقرر المعنى ويوطد له
حتى يتمكن .

* * *

لنثر ابن حزم خصائص نثر الجاحظ تقريباً ، إلا أنه يتفوق
عليه بميزتين اثنتين : الأولى خلوه من الاستطرادات التي قد تمل
كثرتها قارئ الجاحظ ، والثانية ترتيب معانيها ترتيباً يكاد يكون
منطقياً . ثم يستقل أبو عثمان بطول النفس وجمال النكتة
وخفة الروح .

وإذا كان شعر ابن حزم مأنوس اللفظ قريب المتناول سلس
الأسلوب ، فأحر بهذه السمات أن تكون في نثره أظهر .

وسأعرض عليك قطعة من طوق الحمامة ، لو دسستها في كتاب
للجاحظ ، ما استطاع ناقد عارف مهما أوتي من دقة البصر أن
يميزها مما حولها : معانٍ خصبة ، في جمل صغيرة مقطعة تقطيعاً
موسيقياً ، لذيذ الجرس ، حلو النبرات ، فيها دلالة صريحة على أن
اللغة طوع يد ابن حزم يدع منها ويأخذ ما شاء كيف شاء ،

تتوارد عليه مفرداتها وتراكيبها ومترادفاتها من كل جانب ، فيعتقد
منها الفقر المزدوجة التي تسحر اللب وتطرب السمع ، قال :
« وإن فيما يبدو إلينا من تعادي المتواصلين في غير ذات الله
تعالى بعد الألفة ، وتدابره بعد الوصال ، وتقاطعهم بعد المودة ،
وتباغضهم بعد المحبة ، واستحكام الضغائن ، وتأكد السخائم
في صدورهم ... لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولاً سليمة وآراء
نافذة وعزائم صحيحة ... ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير
ذات الله عز وجل ، فعهدها أصفى من الماء ، وألطف من الهواء ،
وأثبت من الجبال ، وأقوى من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون
في الملوّن ، وأنفذ استحكاماً من الأعراض في الأجسام ، وأضواً
من الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق
من كدر القطا ، وأعجب من الدهر ، وأحسن من البر ، وأجمل من
وجه أبي عامر ، وألد من العافية ، وأحلى من المنى ، وأدنى من النفس
وأقرب من النسب ، وأرسخ من النقش في الحجر » فهل يخطر
على بالك شيء بعد هذا الاستيفاء الذي جمع فيه ابن حزم كل المحاسن
والأطايب ليخبر عن شمائل تلك المرأة ؟ وهل رأيت فناً كفته
وعذوبة كعذوبة جملة لفظاً ومعنى وطيب موقع ؟ لقد أتى بها
في جملة قصيرة ملحنة ، تدل على سعة محفوظه وحضور ذهنه

وإحاطته بلغته وتمكنه من معانيه ، فالنظر بعد ذلك كيف انقلبت
مودعة المرأة إلى أضداد تلك الصفات ، وزد إن كنت مستطيعاً
على ما ذكر ابن حزم فقرة واحدة ، إنه جمع لنا مساوئ الدنيا
ومصائبها في هذه النغمات :

« ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استعالت عداوة :
أفطع من الموت ، وأنفذ من السم ، وأمر من السقم ، وأوحش
من زوال النعم ، وأقبح من حلول النقم ، وأمضى من عقم
الرياح ، وأضر من الحق ، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من
الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار ،
وأناهى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من روثية
المصائب ، وأشنع من خرق العادات ، وأقطع من فجأة البلاء ،
وأبشع من السم الذعاف ، ومالا يتولد مثله عن الذحول والترات ،
وقتل الآباء وسبي الأمهات^(١) .. »

هذا ولا يفوتنك لطف مذهبه في إدخال ألفاظ فنه المجردة
في هذه القطعة الأدبية ، فإن (امتزاج اللون بالملون ، واستحكام
الأعراض في الأجسام ، والعيان ..) وما شابهها من ألفاظ المشتغلين
بالمنطق والفلسفة والكلام ... مما لا تهضمه صفحات الأدب ، إلا

إذا أتيح لها صواغ موهوب مفن كابن حزم .

وقد ذكرت لك في بحث حبه القصة الشائعة التي رسمها هو نفسه
بريشته ، ولا شك أنك ستولي انتباهاً خاصاً للعبه بالنفوس بمثل
هذه الجمل الرائعة « . . . فلقد أثارت وجداً دفيناً وحركت
ساكناً ، وذكرتني عهداً قديماً ، وحباً تليداً ، ودهراً ماضياً ،
وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالي ، وأخباراً بوالي ، ودهوراً فواني ،
وأياماً قد ذهبت ، وآثاراً قد دثرت . . . زاد الشجي ،
وتوقدت اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف . . .
وقد تغير أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ،
وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل ، والمرأة
الهندية . . . الخ » لقد افتن كل الافتنان ، واحتال ألطف الاحتيال
حتى أضفى على معانيه هذه الحلل البراقة ، والنور اللائ ، ومكّن
للمعنى من أطرافه وحواشيه حتى يقر في الصدر ويفوز من النفس
بأبلغ الأثر . وهذه ميزة ابن حزم على المتكلفين في التزام السجع
وحشر المترادف .

إنه إذا قصد إلى معنى طريف لم يهجم بك عليه بادی الرأي ،
ولكنه يأخذ بيدك في طريق ملتف فلا يزال بك كالنحلة من
زهرة إلى زهرة ومن ثمرة إلى ثمرة ومن روضة إلى ينبوع ،

حتى تطمئن ونظن كلما وقفت على روعة من الروائع أنها هي
المقصودة بالذات الممهد لها بما سبق ، فما أسرع ما يخلف ظنك حين
يقفك موقفاً أحلى من الأول ولا ينفك بك في لف ودوران
لذيذين ... هكذا حتى يستقر بك على غرضه فإذا بك في سدة
عدن ، وإذا كل ما سبق تهديدات يغري بعضها ببعض ، خذ هذا المثال :
« ولقد جربت اللذات على تصرفها ، وأدركت المخطوط
على اختلافها . فما للدنوّ من السلطان ، ولا المال المستفاد ، ولا
الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن
بعد الخوف ، ولا التروّح على المال ... من الموقع في النفس مالم يصل ؛
ولا سيما بعد طول الامتناع وحلول المهجر ... وما أصناف النبات
بعد غب القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات
في الزمان السجسج ، ولا خريف المياه المتخللة لأفانين النور ، ولا
تأنيق القصور البيض قد أهدت بها الرياض الخضر ... بأحسن
من وصل حبيب^(١) ... » أو هذا المثال^(٢) :

« ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما
رأيت هيئة تعدل هيئة محب لمحبوبه . ورأيت تمكن المتغلبين على
الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبري الدول ، فما رأيت

أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده . . . وحضرت مقام المعتذرين بين أبدي السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان . »

وماذا أختار لابن حزم ؟ فيكفيك ما في الفصول السابقة واللاحقة وخاصة حديثه عن حبه وعن نكباته ، ففيه أصدق صورة عن فنه . ولقد قص قصة عن قاض وقور عشق عشقاً عفيفاً بقيت حسرته تزداد حتى أوردته حتفه ، ثم يذيلها بشمائل هذا القاضي تذييلاً يذكرنا بصفة الجاحظ لقاضي البصرة سوار . قال ابن حزم : « هذا ، على أن أبا عبد الله (يعني القاضي) أكرم الله نزهة ، ممن لم يكن له وله قط ، ولا فارق الطريقة المثلى ، ولا وطئ حراماً قط ، ولا قارف مسكراً ، ولا آتى منهيّاً عنه يخل بدينه ومروءته ، ولا قارض من جفا عليه ، وما كان في طبقتنا مثله » .

لست أستطيع الإفاضة في عرض ألوان ابن حزم الأديب ، وكل ما فعلته وثبات سريعة تعطي عن الرجل فكرة فقط . غير أنه لا مندوحة لي — والرسالة التي أنشرها في الدين — أن أعرض لأثر ثقافته في أدبه ، فلا يجعل بي طيها وابن حزم ذلكم العالم الديني المجتهد الإمام .

اشتغال المرء بصناعة ماء يجعل ألفاظ أدواتها وأفعالها وأشياءها
كثيرة الدوران على لسانه ، بحكم دوؤوبه وممارسته لها ، والمرء أكثر
ذكراً لما يعاينه ويكد خاطره . وهذه ظاهرة نجدها بارزة في
كثير من الأدباء فتنسج مفردات الحرفة التي تزاولها
أسرهم في آثارهم من حيث لا يشعرون . وفي أدبنا العربي طوائف
من هذا النمط ، فبعض الشعراء دارت في أشعارهم كلمات ومصطلحات
تتعلق بالدين أو المنطق أو النحو أو الفلسفة أو غيرها ، والمتنبى
استعمل ألفاظ الفلاسفة والحكماء حتى أغرب في ذلك وسمجت أبيانه
الحاملة لهذه الألفاظ . ولأمر ما سموا بعض الأشعار أسماء خاصة
فقالوا : شعر الفقهاء وشعر الكتاب وشعر النحاة ، يريدون بذلك
إبعاد هذه الألوان عن ساحة الشعر . إلا ابن حزم فإنه على رغم
ما حمل شعره من ثقافته الدينية والنحوية والتاريخية ، بقي خالصاً
من الشوائب للتوفيق الذي وهب له في (تأديب) العلم إن صح
هذا التعبير . لا يشعر قارئه وهو يقرأ في شعره أموراً هي من أدب
الدين أو من النحو أو التاريخ ، أنه فوجئ بما يبعده عن جوه
العلوي الساحر . وسترى أنه — لقوة طبعه وجبروت ذهنه — وفق
في هذه الناحية من حيث أخفق المتنبي وإليك الأمثلة ، قال :
على كل من حولي رقيباً رتباً وقد خصني ذو العرش منهم بثلاث

يعني بهما الملكين اللذين يحصيان حسنات المرء وسيئاته . وقال
كأنما هو توحيد تضيق به نفس الكفور فتأبى حين تودعه
وقال :

وخذني عصاموسى وهات جميعهم ولو أنهم حيات بيض نضاض
وقال :

يرجون مالا يبلغون كمثل ما يرجي محالاً في الإمام الروافض
وقال :

كان زماني عبشي يخالي أعنت على عثمان أهل التشيع
يشير إلى بغض الأمويين للذين أعانوا على قتل الخليفة عثمان
ابن عفان ، وتعقبهم لهم بالقتل . وقال :

كذب المدعي هوى اثنين حتماً مثل ما في الأصول : أ كذب ماني
فكما العقل واحد ليس يدري خالقاً غير واحد رحمان
فكذا القلب واحد ليس يقوى غير فرد مباعد أو مدان
هو في شرعة المودة ذو شاك بعيد عن صحة الإيمان
وكذا الدين واحد مستقيم وكفور من عنده دينان
وقال :

كذلك يعقوب نبي الهدى إذشفه الحزن على يوسف
شم قميصاً جاء من عنده وكان مكفوفاً فمنه شفي
وقال :

كذلك فعل السامري وقد بدا لعينيه من جبريل أثر ممجد
فهي رجوف العجل من ذلك الثرى فقام له منه خوار ممدد

وقال مشيراً إلى قضية نحوية :

أبت عن دني الوصف ضربة لازم كما أبت الفعل الحروف الخوافض الخ
فالتوحيد والكفر والإيمان وأهل التشيع والروافض والثانوية ...
قضايا تتعلق باختصاصه الديني ، كما أن عصا موسى مع الحيات ،
والنبي يعقوب وقميص يوسف ، والسامري الذي قبض قبضة من أثر
جبريل فقذفها في فم العجل فخار ، كلها قصص وردت في القرآن
الكريم . وقتل عثمان وما نشأ حوله من شيعة وأمويين يناسب
الفريق منهم الفريق الآخر العداء ، وشخصية ماني والثانوية ... أمور
معروفة استمدتها من ثقافته التاريخية الواسعة . والفعل والحروف
الخوافض قضية معروفة في النحو . وستأتيك عند الكلام على
حبه ، مقطوعة شعرية له ذهب بها إلى حل الهوى العفيف وأصمى بها
المنتطعين بضربة قاطعة ، إنها اتخذت شكل فتوى شرعية مؤيدة
بالحجج ومناهضة للخصوم بجدل قوي محكم ، وهي بعد هذا
وهذا من الشعر الرائق الجميل .

وأختم هذا الفصل بوصف نزهة حضرها ، نضيفها إلى ما اطلعت
عليه - مع قلته - من نعتة للجمال في الطبيعة والناس ، وقد اخترتها
لأنها جمعت نثراً وشعراً في موضوع واحد قال :

« تنزهت أنا وجماعة من إخواني من أهل الأدب والشرف

إلى بستان لرجل من أصحابنا . فجلنا ساعة ثم أفضى بنا القعود
إلى مكان دونه يُتمنى ، فتمددنا في رياض أريضة^(١) ، وأرض
عريضة ، للبصر فيها منفسح وللنفس لديها منسرح ، بين جداول
تطرد كأباريق اللجين ، وأطيّار تغرد بألحان تزري بما أبدعه
معبد وابن الغريص ، وثمار مهدلة قد ذلت للأيدي وذلت للمتناول ،
وظلال مظلة ، تلاحظنا الشمس من بينها فتتصور بين أيدينا كرقاع
الشطرنج والثياب المديجة ، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة ،
وأثمار متدفقة تنساب كبطون الحيات ، لها خيرير يقوم ويهدأ ،
ونواوير موقنة مختلفة الألوان ، تصفقها الرياح الطيبة النسيم ،
وهواء سبجسج^(٢) ، وأخلاق جلاس تفوق كل هذا ؛ في يوم
ربيعي ذي شمس ذليلة ، تارة يغطيها الغيم الرقيق والمزن اللطيف ،
وتارة تنجلي فهي كالغذراء الخضرة والخريفة الخجلة ، تتراءى
لعاشقها من بين الأستار ، ثم تغيب فيها حذر عين مراقبة . وكان
بعضنا مطرقاً كأنه بحالة أخرى ، وذلك لسر كان له ، فعرض
لي بذلك وتداعبنا حيناً ، فكلفت أن أقول على لسانه شيئاً
في ذلك ، فقلت بديهة ، وما كتبوها إلا من تذكرها بعد
انصرافنا وهي :

(١) معجبة للعين . (٢) معتدل لآخر ولاقر .

ولما تروحنا بأكناف روضة مهدة الأفنان في تربها الندي
وقد ضحكت أنوارها وتضوعت أساورها ؟ في ظل في ممد
وأبدت لنا الأطياف حسن صريفها فمن بين شاك شجوه ومغرد
وللماء فيما بيننا مقصرف وللعين مرتاد هناك وليد
وما شئت من أخلاق أروع ماجد كريم السجيا للفخار مشيد
تنفص عندي كل ما قد وصفته ولم يهني إذ غاب عني سيدي
فيا ليتني في السجن وهو معاني وأنتم معاً في قصر دار المجدد
فمن رام منا أن يبدل حاله بحال أخيه أو بملك مخلد
فلا عاش إلا في شقاء ونكبة ولا زال في بؤس وخزي مردد
فقال هو ومن حضر : آمين آمين^(١) .

هذا وقد مر بك من شعر ابن حزم في موضعه ، طائفة إلا
تكن وافية فإنها مفصحة بعض الإفصاح عن طبعه في الشعر ورقة
عاطفته وعذوبة لفظه وحلاوة مدخله . ولا بأس في أن أزيدك إلى
ما تقدم ، حفته جد قليلة مع تنبيهك إلى أن كتابه (طوق الحمامة)
على صغر حجمه يصلح أن يكون له ديوان شعر ونثر .
فمن قوله يصف دهره وما لقي فيه :

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدر كنا فجائعه تبقى ولذاته تغنى

إذا أمكنت فيه مسرة ساعة
تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف
نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة
وفات الذي كنا نلذ به عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى
وغم لما يرجى فعبثك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه
إذا حققته النفس لفظ بلا معنى^(١)

وقال يشكو ما لقي من أهل بلده من الضياع :
ولي نحو أكناف العراق صباية
ولا غرو أن يستوحش العاشق الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم
فحينئذ يبدو التأسف والكرب
هنالك تدري أن للعبد قصة
وأن كساد العلم آفته القرب^(٢)
ومن لطيف دعابته قوله :

وذي عذل فيمن سباني حسنه
يطيل ملامي في الهوى ويقول :
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره
ولم تدرك كيف الجسم : أنت عليل ؟؟
فقلت له : أسرفت في اللوم فاتشد
فعندي رد لو أشاء طويل :
ألم تر أنني ظاهري وأنني
على ما أرى حتى يقوم دليل^(٣)
فلم يشأ ابن حزم أن يدع (ظاهريته) حتى في الحب والجمال .
ومن قوله في الشوق لأحبابه :

(١) معجم الأدباء والصلة لابن بشكوال ص ٤٠٨ .

(٢) معجم الأدباء .

(٣) المصدر السابق ونفع الطيب .

لئن أصبحت مرثحلاً بجسمي فقلبي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم^(١)
وقصد يوماً أبا عامر بن شهيد في يوم غزير المطر والوحل ،
شديد الريح ، فلقبه أبو عامر وأعظم قصده وقال له : « يا سيدي
مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم ؟ !! » فأنشده ابن حزم بديهاً :
فلو كانت الدنيا دُوَيْنَكَ لجة وفي الجو صعق دائم وحريق
لسهل ودي فيك نحوك مسلماً ولم يتعذر لي إليك طريق^(٢)
وقال في الفراق :

أقمنا ساعة ثم ارتحلنا وما يغني المشوق وقوف ساعه
كأن الشمل لم يك ذا اجتماع إذا ما شئت البين اجتماعه^(٣)
ومن قوله في الحكم ما أرسله يعتذر عن تخلف حظه :
لا تلمني لأن سبقة حظ فات إدراكها ذوي الألباب
يسبق الكلب وثبة الليث في العد و يعلو النخال فوق اللباب^(٤)
إلى غير ذلك من الأشعار التي كانت بحق كما نعتها في مقطوعته
التي قرّع فيها ابن عمه :

وأبعث في أهل الزمان شوارداً تليّنهم وهي الصعاب النوافر
ومن قوله يفتخر بعلمه وعصاميته ويذكر جاهه الذي صدف عنه :

(١) نفح الطيب .

(٢) المصدر السابق ١ : ٤٢٨ فما بعد .

(٣) ابن خلكان . (٤) نفح الطيب .

باغت من الدنيا ذرى أربي
فأذهبت دول الأيام منزلتي
وكان مالي لهذا كله تبعاً
لكن رجعت وقد جلد الزمان إلى
فأعجز الدهر أن يودي بواحدة
لا أختشي نضع الأيام منزلتي
لا يستطيعون عزلي عن ولايتها
هذا بلا كلفة مني ولا حرس
وكل من كان في دنياي يصحبني
كلام من جرب الأمرين وانضحت
أنا ابن من دبر الدنيا بنخاته
وإن منزلتي في العلم منزلة
ما زلت أذخره دهري وأنفقه
وإنني لبخيل بالسلام إذا
لو استطعت منحت الناس كلهم
أأبذل المال يفني البذل حاصله
سائل بأي علوم العالمين تجدد

في لذة العيش والسلطان والنشب
وزاد فقدي للذات في كرب
بل صار عوناً لأعدائي على طلبي
كتزمن العلم والأخلاق والأدب
منها وأقصر عني واهي السبب
مدى الزمان وعندي أغلب الطلب
إذ كل وال لهم بالعزل في العقب
ولا عديد ولا إنفاق مكتسب
ناديته حين خانتني فلم يجب
له المذاهب من جد ومن لعب
عشرين عاماً وعشر بعد لم يرب
في الملك حظ كحظ الصادق النسب
(دأباً) كمثل اللجين المحض والذهب
بخلت بالعلم من لفظي ومن كتيبي
ما قد تجمع في حفظي وفي كتيبي
ولست أبذل ما ينمي على النهب
عندي ينابيع ذلك العلم من كتيبي^(١)

* * *

هذا ما أمكنت منه خطتي في الترجمة ، وما واثت عليه
الفرصة ، وليس أدب ابن حزم بالذي تستوفي إحدى نواحيه
في هذه الصفحات ، لأنه - وخاصة في رسالة طوق الحمامة - : أديب
عالي سبق عصره قروناً ، وإني لأرجو أن أتيح لنفسي فرصة
أخرى فأتكلم على أدبه خاصة إذا يسر الله لي جمع ما تفرق
من شعره ونثره .



و - حبه

شاء الله لابن حزم أن يكمل من حيث نقص كثيرون فيها
كل شيء لهذه النفس السامية حتى خفقت بالحب النبيل العف الطهور ،
ذلك الحب الذي نعمت به قلوب الصفوة من العباد الصالحين .
والأندلس لعهد ابن حزم مرتع الجمال العجيب : في طبيعته
وفي أهله رجالاً ونساء ، عجت بالخور من مختلف الأجناس ، من
آسية وإفريقية وأوروبة فتوالد من تمازج الأعراق جيل جديد تم
للأندلس به جمال خاص أثر في رجالها فلطف طباعهم وطبع أدب
الأندلس بهذا الطابع الرقيق الجذاب الذي تفردت به .
وابن حزم منذ نعومة أظفاره ، صافي النفس رقيق الشمائل
مرهف الحس ، مشبوب العاطفة . يزين ذلك كله تهذيب (أرستقراطي)
متوارث ، وعقل واسع وعزيمة ضابطة مع خوف من الله عز وجل .
والذي عجل تفتح قلبه ، إشراف أرقى الأندلسيات على تربيته ،
وإحاطته إلى زمن استتمام رجولته بسيدات هن أرقى نساء مجتمعه .
فصبها وخفق بالحب قلبه ثم تمكن واشتد ، ونفس عنه بمقاطيع من
الشعر تفيض رقة وحرقة . وليس لأحد أن يستغرب من إمام كابن
حزم أن يملكه الجمال ، ويأسر لبه ، فما كان رجال الشريعة يوماً

من الدهر غُلف القلوب ولا عُمي العيون ولا متبلي الحس ، بل
إن ثقافتهم بطبيعتها لتهديهم إلى معجزات الله في الجمال ، وتجدوهم
على تقديرها والتمتع بنعمها وشكر المبدع في صنعها .

وإن من أعرض عن نداء عواطفه التي أودع الله في قلبه ،
وتهاون بنظام بني الله عليه الكون منذ بدء الخليقة ، لكائن لم
تكمل آدميته ، رجلاً كان أو امرأة . والله الذي ميز الانساث
بالتفكير السامي هو الذي غرس في قلوب كل جنس نوازع نحو
الجنس الآخر ، وجعل بينهما مودة ورحمة لتتم حكمته في عمران الدنيا
والعازفون عن سنة الله في بريته معطلون ناقصون ، وما جعل الله
يوماً من القربات إليه تعطيل نظام أحكمه بيديه

ولقد بهرج ابن حزم - رحمه الله - هذا الضرب من الورع
الكاذب ، وزيفه أشد تزيف فقال :

يُسلم رجال فيك لم يعرفوا الهوى

وسيان عندي فيك لاح وساكت

يقولون : جانب التصاون جملة . وأنت عليهم بالشريعة قانت

فقلت لهم هذا الرياء بعينه صراحا وزى للمرائين ماقت

متى جاء تحريم الهوى عن محمد وهل منعه في محكم الذكرا ثابت

إذا لم أوانع محرماً أتقي به . مجيئ يوم البعث والوجه باهت

فلست أبالي في الهوى قول لائمه سواء لعمرى جاهر أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت^(١)

إذا لقد أحب ابن حزم ولا مناص ، والحب السامي اضطراري
لا اختياري ، يبعثه الجمال في القلب الكامل والنفس الزكية
والطبيعة الشاعرة . وكان من نعمة الله على المكتبة العربية ، أن
يسلم لها مختصر لكتاب (طوق الحمامة) ، الكتاب الذي قصره
مؤلفه على الحب ودواعيه وحالاته وآثاره وعوارضه ويعنيها منه
بوجه خاص أعران لا تتم لنا صورة صادقة عن حياة ابن حزم ،
حتى نعرض لها : أما الأول فأخبار حبه وآثاره في نفسه ، وأما
الثاني فهو اختباراتهِ في هذا الميدان ودراسته العميقة لمجتمعهِ في
الحب ، ثم دقة وتحليل وفق إليهما في دراسته النفسية العميقة .
ونحن فيما نسوق إليك عيال على هذا المصدر الوحيد ، ولولاه
ما استطعنا أن نعرف شيئاً عن حياته الشعرية هذه ، ولبقيت سرّاً
مجهولاً ، ولم ننعم إلا بصورة شوهاء عن حياته .

أطلعنا ابن حزم على حوادث ثلاث في تاريخ قلبه ، وكلها
أصابه في صباه وحدثاته سنه ، وكلها كان له الأثر البالغ في
حزن نفسه وإثارة عواطفه وفجيعته شبابه .

فأما الأولى فتبين لنا أثر الحب الأول إذا صادف قلباً خالياً ،
كيف يتمكن حتى لا يولم الحب إلا بما شابه صفة محبوبه
الأول قال :

« وعني أخبرك : أني أحببت في صباي جارية لي شقراء
الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو أنه على
الشمس أو على الحسن نفسه . وإني لأجد هذا في أصل تركيبي
من ذلك الوقت ، لا تواتيني نفسي على سواه ، ولا تحب غيره
البتة . وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه وعلى ذلك
جرى إلى أن وافاه أجله » .

ثم ذكر ملاحظته الخاصة بخلفاء بني مروان وكيف تتابعوا
جميعاً على محبة الشقراء من النساء حتى أتى أغلبهم أشقر أشهل
نزاعاً إلى أمهاتهم . فأيد بذلك نظريته في ابتغاء الإنسان الصفة التي
عليها محبوبه الأول . وهذا هو أسلوبه في أكثر الكتاب يشرح
العارض ويصف أحواله ثم يؤيده بالشواهد التي عانى أو عاين أو سمع .
وأما الثانية ففاجعة بحبيب حل من قلبه أسى محل ، فغبرابن حزم
بعدها لا يطيب له عيش ولا يجد عنها سلوى ، وقد أثرت في
نفسه أبلغ الأثر حتى ما كاد ينتفع بنفسه بعد ، وحتى فاضت
قريحته بمقطوعة من أصدق الشعر العاطفي ذكر منها مع الأسف

أبياتاً متفرقة ، نثره في سرد في الحادث أشهر منهن وأبلغ ، قال في باب البين :

« وعني أخبرك : أني أحد من دهي بهذه الفادحة ، وتعجلت له هذه المصيبة . وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً تجارية لي كانت فيما خلا ، اسمها (نَعْم) وكانت أمنية المتقني وغاية الحسن خلقاً وخلُقاً وموافقة لي ، وكنت أبا عذرها . وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومر النهار وضارت ثلاثة التراب والأحجار ، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هي دوني في السن

فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ولا تغتر لي دمية على جمود عيني وقلة إسعادها ، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن (أي بعد خمس عشرة سنة) ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من قالد وطارف ، وبيعض أعضاء جسمي العزيزة علي مسارعاً طائعا . وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ، ولقد عفى حيي لها على كل ما قبله وحرّم ما كان بعده ، ومما قلت فيها :

مهدبة بيضاء كالشمس إن بدت وسائر أرباب الحجال نجوم

أطار هواها القلب عن مستقره فبعد وقوع ظل وهو يحوم
ومن مرآتي فيها قصيدة منها :

كأنني لم آنس بالفاظك التي على عقد الأبواب هن نوافث
ولم أتحكم في الأمانى كأنني لا إفراط ما حكمت فيهن عابث
وفيها :

ويبدن إعراضاً وهن أوالف ويقسمن في هجري وهن حوانث^(١)
والحقيقة أن هيام ابن حزم بنعم بلغ الغاية في الشدة ، حتى
أنه بعد موتها لم يكن ليسلوها في يقظة ولا منام ، والمرء يرى
في أحلامه ما تهتف به نفسه الباطنة : لقد رأها مرة في نومه
فسر بها كل السرور ، وخلد لنا بشر نفسه في هذه الأنياب
الصادقة القوية ، دليلاً على المحل الذي حلت به من قلبه ، محل لم
ينزله غيرها أحد قط :

أتى طيف نعم مضجعي بعد هدأة وليل ساطعان وظل ممدد
وعهدي بها تحت التراب مقيمة وجاءت كما قد كنت من قبل أعهد
فعدنا كما كنا وعاد زماننا كما قد عهدنا قبل والعود أحمد^(٢)

وأما الثالثة فقصة حب لم يستجب له ، بقي شديداً متسعراً

(١) ص ٨٨ .

(٢) ص ٩٥ .

سنين طويلة ثم برد فجأة حين رأى محبوبته بعد غياب ، وقد غاض
جمالها لعدم تعهده . والقصة على طولها طريفة جداً لأنها تشرح
بإسهاب لذيذ مطاردة ابن حزم للجارية ، وتمنعها . ثم هي إلى ذلك
تصف لنا مجتمع ابن حزم وصفاً دقيقاً لا نجد تفصيله في مكان
آخر ، وحسبنا أن الذي يقوم ببيان هذا كله هو ابن حزم نفسه ،
ولا تنس أن ذلك كان منه أيام الصبا قبل تفرغه لطلب الفقه ، قال :
« وإني لأخبرك عني ألي ألفت في أيام صباي إلفه المحبة ،
جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر
عاماً ، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها
ودمائها ، عذبة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسيلة الستر ،
فقيدة اللام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية
من العيوب ، دائمة القلوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ،
مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا
توجه الأراجي نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرض للأمل
لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها ، تزدان في
المنع والبخل ، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على
الجد في أمرها ، غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت تحسن العود
إحساناً جيداً ، فنجحت إليها وأحببتها حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت

عامين أو نحوهما، أن تبيِّنني بكلمة وأسمع من فيها لفظة - غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع - بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة .

فلهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا^(١) ودخلة أخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدرأ من النهار ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة ، وفحوصها^(٢) مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن . فأني لأذكر أنني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها ، متعرضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن تراني في جوارها فبترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره ، وكانت قد علمت كلني بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً ، وإذا كن ينقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب

(١) النخلة مثناة الدال : البطانة .

(٢) الفحوص : جمع فخص وهو كل موضع يسكن .

على جهات لا يطلع من غيرها عليها . واعلم أن قيافة النساء فيمن
يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج^(١) في الآثار ، ثم تزلزل إلى
البستان فرغب عجائزنا وكرائنا إلى سيدتها في سماع غنائها ،
فأمرتها فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله ، وإن
الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغني بأبيات
العباس بن الأحنف حيث يقول :

إني طربت إلى شمس إذا غربت كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة في خلق جارية كأن أعطافها طي الطوامير^(٢)
ليست من الإنس إلا في مناسبة ولا من الجن إلا في التصاوير
فالوجه جوهرة والجسم عبهرة^(٣) والريح عنبرة والكل من نور
كأنها حين تخطو في مجاسدها^(٤) تخطو على البيض أوحدا القوارير
فلعمري لكان المضرب إنما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك
اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا وهذا أكثر ما وصلت
إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها وفي ذلك أقول :

(١) القيافة معرفة آثار الناس ، ومدلج قبيلة اشتهرت بحذقها في

القيافة بين العرب .

(٢) الطوامير : الصحف . والعبهرة المعقولة الجسم الناعمة الطويلة

والجسد (كبرد) : ثوب يلي الجسد « قاموس » .

لا تلمها على النفار ومنع الوصل بل بل^(١) ماذا لها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد أو يكون الغزال غير انفور
وأقول :

منعت جمال وجهك مقلتيًا ولفظك قد ضمنت به عليًا
أراك نذرت للرحمن صوما فليست تكلمين اليوم حيا
وقد غنيت للعباس شعرا هنيئاً ذا لعباس هنيا
فلو يلقاك عباس لأضحى لفوز^(٢) قالياً وبكم شجيا
ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدث^(٣) بالجانب الشرقي
من قرطبة في ربض الزاهرة ، إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي
من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين
محمد المهدي بالخلافة وانتقلت أنا بانتقاله وذلك في جمادى الآخرة
سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، ولم تنتقل هي بانتقالنا لأمر أوجبت
ذلك . ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد ، بالنكبات
وباعتداء أرباب دولته ، وامتحننا بالاعتقال والترقيب والإغرام
الفادح والاستتار ، وأرزمتم [اشتدت] الفتنة وألقت باعها وعمت
الناس وخصمتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه

(١) في الأصل : كم . وما : نافية .

(٢) فوز : معشوقة العباس بن الأحنف .

(٣) لعل الصواب : المحدث .

الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام
اثنيتين وأربعمائة .

وانصلت بنا تلك الحال بعده إلى أن كانت عندنا جنازة
لبعض أهلنا فرأيتها - وقد ارتفعت الواعية^(١) - قائمة في المآتم
وسط النساء في جملة البواكي والنوادر : فلقد أثارت وجداً دفيناً ،
وحركت ساكناتنا وذكرني عهداً قديماً ، وحباً تليداً ، ودهراً
ماضياً ، وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالي ، وأخباراً بوالي ، ودهوراً
فواني ، وأياماً قد ذهبت ، وآثاراً قد دثرت ، وجددت أحزاني ،
وهيجت بلايلي . على أنني كنت في ذلك النهار مرزاً مصاباً
من وجوه وما كنت نسيت ، ولكن زاد الشجى وتوقدت اللوعة ،
وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان
منه كامناً فلباه مجيباً فقلت قطعة منها :

يبكي لميت مات وهو مكرم وللحي أولى بالدموع الذوارف
فيا عجباً من آسف لامرئٍ ثوى وما هو للمقتول ظلاً بأسف
ثم ضرب الدهر ضربانه ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا
جند البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة .

(١) الضمير يعود إلى الجارية صاحبة القصة ، والواعية : الصراخ

وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر ،
ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة فنزلت على بعض
نسائنا فرأيتها هنالك ، وما كدت أن أميزها حتى قيل لي : « هذه
فلانة » وقد تغير أكثر محاسنها وزهبت نصارتها وفنيت تلك
البهجة ، وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة
الهندية ، وذبل ذلك النوار^(١) الذي كان البصر يقصد نحوه متبوراً^(٢)
ويرتاد فيه متخيراً ، وينصرف عنه متحيراً ، فلم يبق إلا البعض
المنبئ عن الكل ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتمامها
بنفسها ، وعدمها الصيانة التي كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد
ظلمنا ، ولتبذرها في الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت نصان وترفع
عنه قبل ذلك وإنما النساء رياحين : متى لم تتعاهد نقصت ، وبذية :
متى لم يهتمل بها استهدمت . ولذلك قال من قال : « إن حسن الرجال
أصدق صدقاً وأثبت أصلاً وأعتمق جودة لصبره » على ما لولقي بعضه
وجوه النساء لتغيرت أشد التغير : مثل الهجير والسموم والرياح
واختلاف الهواء وعدم الكن . « وإني لو نلت منها أقل وصل ،

(١) النوار : كرمان الزهر .

(٢) علق مصحح الطبعة ما يلي : كذا في الأصل ولعل الصواب

مبتاراً أي مختبراً .

وأنت لي بعض الأنس ، لحولت طرباً ، أو لمت فرحاً ،
ولكن هذا النفار الذي صبرني وأسلاني ، وهذا الوجه من أسباب
السلو ، صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم إذ لم يقع
تثبت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضي المحافظة ، ولا سلف ذمام ،
ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه .

* * *

وانظر الآن إلى الإرادة القوية والعفة الأصيلة كيف تغلبتا
على ابن حزم ، حين استحكمت واستوى ، في موقف لا يسلم فيه
إلا القليل ، لقد جاز امتحاناً بغاية النجاح ، وقهر هواه وملك
لبه وكان على حد قول الرافعي رحمه الله :

قلبي يحب وإنسا أخلاقه فيه ودينه

قال : « ولقد ضمنى المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من
بعض معارفي ، مشهورة بالصلاح والخير والحزم ومعهما جارية من
بعض قراباتها من اللاتي قد ضمها معي النشأة في الصبي ثم غبت
عنها أعواماً كثيرة ، وكنت تركتها حين أعصرت ، ووجدتها
قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها
ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت في سماء وجهها نجوم

الحسن فأشرق وتوقدت ، وانبعثت في خديها أزاهير الجمال فتمت
واعتمت وأنت كما أقول :

خريدة صاغها الرحمن من نور جلّت ملاحظتها عن كل تقدير
لو جاءني عملي في حسن صورتها يوم الحساب ويوم النفخ في الصور
لكنت أحظى عباد الله كلهم بالجنّتين وقرب الخرد الحور
وكانت من أهل بيت صباحة ، وقد ظهرت منها صورة
تعجز الوصاف ، وقد طبق وصف شبابها قرطبة ، فبت عندها
ثلاث ليال متوالية ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية .
فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الموى ،
ويعاوده منسي الغزل ، ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك
الدار خوفاً على لي أن يزدهيه الاستحسان ، ولقد كانت هي
وجميع أهلها ممن لا تمتدّى الأطماع إليهن ولكن الشيطان غير
مأمون الغوائل .

ولا تحسبن ما يلقى من المكابرة في حبه أمراً هيناً ، أو
تظنن أن حبه لم يبلغ من القوة بحيث يتغلب على عفته وصلابته .
بل اعلم أن عاطفته تشد كأقوى ماتشتد في فحول الرجال ، وهواه
مضطرم عاصف لا يقف له شيء ، وإن الذي ينعى إليه بعض من
يجب من بلد نازح فيجد لذلك من الوجد والحزن ماتضيق معه

الأرض على رحبها ، حتى يفر بنفسه نحو المقابر ويهيم على وجهه
بينها وهو ينشد ^(١)

وددت بأن ظهر الأرض بطن وأن البطن منها صار ظهراً
وأني مت قبل ورود خطب أتي فأنار في الأكباد جها
وأن دمي لمن قد بان غسل وأن ضلوع صدري كن قبرا
ثم يتصل به بعد حين كذب هذا النعي فلا يسكاد يستقر
فرحاً ثم ينشد :

بشرى أتت واليأس مستحكم والقلب في سبع طباق شداد
كست فوادي خضرة بعد ما كان فوادي لابساً للحداد
جلت سواد الغم غني كما يجلى بنور الشمس لون السواد
إن الذي يهيم هذا الهيام ويستخفه نعي وبشرى ذلك الاستخفاف ،
فتفيض لوعته كما يطفح فرحه ، إن هذا لرجل ممكن له في
دنيا الحب حتى بلغ فيها درجة الفناء على تعبير الصوفيين ، فإذا سلط
على حبه هذا العظيم دينه وورعه ، عرفنا مبلغ قوة التدين فيه
وأنه شيء لا يسكاد يفني بوصفه البيان .

* * *

هذا ما قصه علينا ابن حزم من أحاديث صبوته في صباه .
وهو حين يتكلم فيما يعرض للحب والمحبين من أحوال ، أسرع ما

يكون إلى إيراد الشاهد في نفسه أو في غيره . وهذا اطلعنا
على خصائص حبه وتاريخ قلبه ، وأنه حب ممكن يتأصل ببطء
بعد امتحان طويل ، ولكنه ثابت لا يسلو عنه قط . قال في باب
(من لا يجب إلا مع المطاولة) :

« وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد
ملازمة الشخص لي دهرًا وأخذي معه في كل جد وهزل .
وكذلك أنا في السلوة والتوق : فما نسيت ودًا لي قط ، وإن
حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء ،
ولا أسرعت إلى الأُنس بشيء قط أول لقائي له ، وما رغبت
الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت ، لا أقول : في
الألف والإخوان وحدهم ، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من
ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا
فارقني الإطراق والانعلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه
لشجى يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرقني ، ولقد نقص تذكري
ما مضى كل عيش أستأنفه ، وإني لقتيل المموم في عداد الأحياء
ودفين الأسي بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال لا إله
إلا هو . وفي ذلك أقول شعراً منه :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة ولا ورثت حين ارتياد زنادها

ولكن علي مهل سرت وتولدت بطول امتزاج فاستقر عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يوه كد ذا أنانري كل نشأة تتم سريعاً عن قريب نهادها
ولسكنني أرض عزاز صليبة منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها لديها عروقها فليست تبالي أن يجود عهادها^(١)

وهذه غاية في الإخلاص وصدق المحبة والوفاء . وعلى هذا
القرار فليكن الحب المخلص والعلاقة البريئة وحفظ العهد .

ومن رزق حظ ابن حزم من العشق ، لم يروه منه شيء ،
وكما نهل طلب مزيداً ، لأن القلب الصادق الحب ظامئ أبداً
مستزيد كلما روي ، بهذا حكم ابن حزم وأيد حكمه بهذه
الحادثة التي رواها عن نفسه قال :

«وعني أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل ، ولا زادني
إلا ظماً ، وهذا حكم من تداوى برأيه وإن رفه عنه سريعاً .
ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد
الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتني إلا مستزيداً ، ولقد طال بي
ذلك ، فما أحسست بسامة ولا رهقتني فترة ، ولقد ضمني مجلس
مع من كنت أحب ، فلم أجعل خاضري في فن من فنون الوصل

(١) طوق الحمامة ص ٢٢ . النهاد : المناهضة . والعهاد : العطر .

إلا وجدته مقصراً عن مرادي وغير شاف وجدي ، ولا قاض
أقل لبانة من لباناتي ، ووجدتني كلما ازددت دنواً ازددت تلوزاً ،
وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي فقلت في ذلك المجلس :

وددت بأن القلب شق بمديّة وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعبشين فيه ماحيت فإن أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر^(١)

ولست بحاجة إلى التنبيه على سمو هذه العاطفة وروعة هذا
الشعر الصادق ، عبر فيه ابن حزم عن ذات صدره ولم يشأ
الإغراق على طريقة الشعراء . وقد يبدو في شعره هذا شيء من
الأثرة (الأنانية) لم يتصنع فيه إلا يشار المألوف في الغزل ،
لأنه إنما أحب لنفسه فترجم عن هذا الحب بأصدق عبارة وأدق
صورة . ومن الطريف أن جديلاً قام بينه وبين أبي عبد الله
محمد بن كليب في القيروان ، حول هذه النقطة ، كان فيها مجادله
داعية إلى الإيثار فقال محمد :

- إذا كره من أحب لقائي وتجنب قربي فما أصنع ؟
ابن حزم - أرى أن تسعى في إدخال الروح على نفسك
بلقائه وإن كره .

محمد - لكنني لا أرى ذلك ، بل أؤثر هواه على هواي ،
ومرادى على مرادى وأصبر ولو كان في ذلك الخفف .

ابن حزم - إني إنما أحببته لنفسى ، ولا ألتذاذها بصورته
فأنا أتبع قياسى وأقفو طريقتي في الرغبة في سرورها .

محمد - هذا ظلم من القياس : أشد من الموت ما تمنى له
الموت ، وأعز من النفس ما بذلت فيه النفس .

ابن حزم - إن بذلك نفسك لم يكن اختياراً بل كان
اضطراً ، ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها . وتركك لقاء
اختياراً منك ، أنت فيه ملوم لا يضرك بنفسك وإدخالك
الخفف عليها .

محمد - أنت رجل جدلي ولا جدل في الحب^(١) .
وحيناً نرى ابن حزم يتحفنا بشمرات دراسته القيمة لأحوال
الحبين ، فيطلعنا على الفرح الشديد ينعم به من أيقن بمحبة حبيبه ،
وعلى الغم القاتل يقاسيه من حرم عطف من يحب ، والحالات النفسية
التي يلقي بها الحب حبيبه غير مختار . ثم يطلعنا بإخلاص على سريرة
نفسه وما وقع له هو في الحالين ، في نثر بديع يأخذ بمجامع
القلوب ، قال :

« ولقد وضئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ،
فما رأيت هيئة تعدل هيئة محب لمحبوبه ؛ ورأيت تمكن المتغلبين
على الرؤساء ، وتحكم الوزراء وانبساط مدبري الدول ، فما
رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن
أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بيميله إليه وصحة مودته له ؛ وحضرت
مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ، ومواقف المتهمين بمظالم
الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب
هيان بين يدي محبوب غضبان : قد غمره السخط وغلب عايه
الجفاء . » ثم قال عن نفسه :

« ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من
الحديد وأنفذ من السيف : لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على
الخضوع ، وفي الثانية أذل من الرداء وألين من القطن : أبادر
إلى أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتني فرصة الخضوع لو نجع .
وأتحمل بلساني ، وأغوص على دقائق المعاني ببياني . وأفنئ القول
فنوناً وأنصدي لكل ما يوجب الترضي^(١) . »

وأمر آخر في ابن حزم يثير الدهشة والإعجاب ، وهو أنه
وصل في خبرته وتجاربه إلى نتائج ما يماري فيها الإنسان لاستنادها

على دراسة نفسية عميقة مع ملاحظة وانتباه وتأمل ، وكأني به في وصفه التغيرات (الفسيولوجية) التي تطرأ على الحب في حضرة حبيبته ، وإحدًا من كبار علماء النفس في عصرنا العشرين قال : « وشيُّ أصفه لك تراه عيناً ، وهو أني مارأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلاً يراها أو يسمع حسها ، إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمنزل ، وأنت بكلام زائد كانت عنه في غنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهمم لمخرج لفظها وهيئة تقلبها لأثماً فيها ، ظاهراً عليها ، لا خفاء به ، والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء . وأما إظهار الزينة وترتيب المشي وإيقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة ، فهذا أشهر من الشمس في كل مكان . والله عز وجل يقول : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ^(١)) وقال تقديست أسماؤه : (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِنَّ لِیُعْلَمَ مَا یُخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ^(٢)) فلولوا علم الله عز وجل برقة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلى القلوب ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس

(١) سورة النور (٢٤) الآية : ٣٠

(٢) سورة النور (٢٤) الآية : ٣١

وراه مرعى . وهذا حد التعرض فكيف بما دونه» (١) .

ستقرأ قريباً كلمة ابن حزم في ترفعه عن الحرام ، وعصمته منه ، آخر الكلام على أخلاقه ، وستطلع الآن على السبب في أنه ما حل مئزره على حرام قط منذ عقل ، وأنه بريء الساحة نقي الحجره ، وهو يعود في جملته إلى رقابة أسرته وتوجيه شيخه قال : « وكان السبب فيما ذكرته (يعني من عفته العجيبة) أني كنت وقت تأجج نار الصبي وشرة الخدائة وتمكن غرار الفتوة مقصوراً محظراً علي : بين رقباء ورقائب ؛ فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه ، وكان أبو علي المذكور عاقلاً عاملاً عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح والزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حضوراً لأنه لم تكن له امرأة قط ، وما رأيت مثله جملة : علماً وعملاً ودينياً وورعاً ، فنفعتني الله به كثيراً وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصي» (٢) .

ونجاة ابن حزم من الحرام مع كثرة اختلاطه بالنساء وأنسهن إليه ، وإنضائهن إليه بأسرارهن ، وإطلاعه منها على ما لا يقيسر لغيره
إحدى الأعاجيب التي لا تتأق لبشر إلا في الفرط النادر .

ويدهشي منه خروجه على المألوف من الغلط ؛ فيما شاع من تعريف الصالح والفاسق ، فقد ألف الناس لهاتين الكلمتين معنى بعيد الوقوع غير فطري . يشك فيه كل من أمعن في سيرة المختارين من البشر . . . حتى وضع لهما ابن حزم الحدود المعقولة الواقعية ، مستفيداً من خبرته بنجاياء الصدور وأسرار النفوس قال : « إني رأيت الناس يغفلون في معنى هذه الكلمة أعني الصلاح غلطاً بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي : إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هي التي : إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش ، تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض (للمناظر) الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ويتصدىء للمشاهد المؤذية ويجب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاسق كالنار المشتعلة تحرق كل شيء »^(١) .

وهذا نعت معقول ، ونظن أن الصالح — بالمفهوم الشائع — الذي لا يؤثر فيه الجمال ولا تحدثه نفسه بشيء حياله كائن لم يخلقه الله قط .

وبعد فهذا هو ابن حزم في حبه ونبله وسمو عواطفه وهزة نفسه ورقة حسه وطهارة ذيله عظيم نادر المثال في الرجال المحبين ، كما كان عظيماً نادر المثال في المفكرين أولى الأذهان الحداد والقرائح الصافية والعبقرية العجيبة .



ز - أخلاقه

البيت الذي درج فيه ابن حزم بيت فضل وتهذيب ونبل ،
فلا عجب إذا نشأ كريم الخلق ، جم المزايا ، طيب النفس .
ولقد عرفت - مما مر - كثيراً من سجاياه ورأيت إجماع من
ترجموا له على صدقه وتحريره وتدينه وزهده وورعه وحشمته
وسودده وتواضعه ^(١) وعفته .

عني والده - وكان جليلاً محتشماً كبير الشأن - بتنشئته
أحسن العناية ، ورأى هو من أفراد أسرته السرية من كانوا
مثال الكمال وعلو الأخلاق ، وعاش محاطاً بجماعة من طبقته
فلم يصب بمعاشرة سفلة الناس ، وكان بمنأى عن الحاجة التي
تعرض صاحبها للذل والاحتياج ، وجد الدنيا تجر أذيالها في داره
فتقلب في نعيمها ماشاء ، وبلغ من جاهها حتى منصب الوزارة ، ثم
صدف عن ذلك كله وعكف على طلب العلم والمعالي .

أما أبوه الذي عرف أن السعادة لاتدوم لكائن ، فقد أخذ
ولده بتوطين نفسه على الخشونة والقلة والنكد وكان فيما أوصاه
به قوله :

(١) المقرئ والذهبي وابن بشكوال وياقوت والفتيح بن خاقان .

إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها^(١)
وأول ما شاهدناه من كبر نفسه زهده في جاه حاضر ، ودنيا
مقبلة مع مجد طريف وتالد في الوزارة له ولأبيه قبله ، مع تحريره الحق
مهما جر عليه ، ثم صلابته في المضي فيه متحملاً المكاره والشدائد .
ولابن بشكو ال كلمة جمعت أخلاقه في جملة واحدة وهي قوله : « كان ...
عاملاً بعلمه » .

ولم يذكرنا من هناته إلا « طول لسانه واستخفافه ووقوعه
في أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة وأفظ محاوراة وأمنع تمرد^(٢) » .
وإذا طرحنا نحن جانب المبالغة في هذا القول ، وجدنا عذره في
ذلك ما استرى من مزاجه وحماسته في سبيل ما يعتقد أنه الحق ، ثم
اندفاعه في الجدل والنضال عن مذهبه ، مرخياً لحديثه العنان .
ونحن نعرف أن أصحاب العقائد من الناس أبعد عن المجاملة والمداراة .
أما فيما لا يمس العقيدة والعلم فقد كان ابن حزم مطبوعاً - كما قال -
« على التاني والتربص والمسالمة^(٣) » ما أمكنت . وعلى مقدار تشدد
هذه الطبقة فيما يمس العقيدة تجد فيهم تساهلاً وتسامحاً فيما يمس

(١) نفح الطيب .

(٢) تذكرة الحفاظ .

(٣) طوق الحمامة ص ٥٤ .

أنفسهم وحفظوهم ، لدرجة يظنها الجاهل عجزاً ورهبة . وما هي
بهما وإنما وجهوا مواهبهم وعزائمهم جهة واحدة سامية صرفوا
إليها جهودهم ووقفوا عليها تفكيرهم وقواهم وجعلوها محوراً مركزاً
فيه كل شعورهم ، فلا يشغلهم عنها شغل مها أكبره الناس
واهتموا به . وهذا هو السر في زهد الأنبياء ومن وليهم من
من طبقات المصلحين أولي العقائد في حظوظ أنفسهم وعدم الانتصار
لها ، ومقابلتهم السوء بالإحسان ^(١) حتى ليتجراً عليهم - مع قوتهم -
أضعف الناس ومن لا يدفع عن نفسه . ولعل هذا أيضاً يفسر
لك إعراض ابن حزم عن دنيا نشأ فيها ووزارة ذاق حلاوتها .

* * *

أما « وقوعه في أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة » فلم أجد عليه
شاهداً قط ، وليس في مخالفته أئمة الاجتهاد في آرائهم ما يعد
من هذا القبيل ، وما كان تركك اجتهاداً ليعد طعنًا في صاحبه .
والذي أعرفه أن ابن حزم كان جم التواضع جم الأدب مع
الأحياء والأموات ، وإليك الدليل :

جاء في طوق الحمامة قبل آيات له :

« وأنا أقول من غير أن أمثل شعري بأشعارهم ، فلهم فضل
التقدم والسابقة ، وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون ، ولكن اقتداء

(١) سيأتي شاهد هذا في ابن حزم بعد قليل .

هم جرياً في ميدانهم وتتبعاً لطريقتهم التي أنهجوا وأوضحوا^(١) .
ومن كان أديباً مع الذين سبقوه من الشعراء فأحر به أن
يكون أكثر أديباً مع الفقهاء وأئمة الاجتهاد

هذا كله مع استقلال في التفكير ، واعتداد بالنفس ، واستغناء
عن كل أحد ، في جميع ما نظم وأرسل وألف وفكر : « وما
مذهبي أن أنضي مطية سواي ، ولا أثملي بجلي مستعار^(٢) . »
ومع هذا التواضع لم يبارحه كرمه قط ، حتى في حال
محنته ، وكانت داره في مغتربه بشاطبة ، منزلاً لاخوانه مدة
مقامهم بها^(٣) . وأنا لم أنص على كرمه والزمن مقبل عليه ، وداره
محط الرحال بقرطبة ، ومقصد أرباب الحوائج والمنتجعين ، ينالون
فيها من ماله وجاهه ، لأن هذا أمر مألوف لا غرابة فيه ، وإنما
الكرم الأصيل هو الذي لا يفارق صاحبه في أشد أيامه عليه .

أما الخلق النادر في الرجال ، في مثل زمن ابن حزم الرهيب ،
فهو الوفاء وعزة النفس . وأيام الحن وتقلبات الدول هي أصدق
الظروف لامتحان الأخلاق ، فيها يحيق المكروه بأصحاب الوفاء

(١) طرق الحماسة ص ٩٦

(٢) طرق الحماسة ص ٣

(٣) طرق الحماسة ص ٨٢

وفيهما يغيض الوفاء ويستفيض الغدر ، ويشيع الرياء ويغيب الإخلاص .
فمن صادق رجلاً دالت سلطته تبراً منه في سلطة خصمه تجنباً
لأذاه ، أو آذاه تقريباً لديه السلطان . وأعزاء النفوس أيام
الرخاء يضطرون إلى إهانتها في الشدائد ، إلا أناساً قليلين
يستحلون الموت والعذاب الأليم في سبيل أخلاقهم . ومن هذا
القليل النادر صاحبنا ابن حزم .

أخبر عن نفسه - وهو الصادق بإجماع - فقال :
« لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت إلي بقلبية
واحدة ، ووهب لي من المحافظة لمن يتذمم بي ولو بمحادثته ساعة
حظاً أنا له شاكر وحامد ، ومنه مستمد ومستزيد . وما شيء
أثقل عليّ من الغدر ، ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة
في اضرار من بيني وبينه أقل ذمام وإن عظمت جريرته ، وكثرت
إليّ ذنوبه . ولقد دهمني من هذا غير قليل ، فما جزيت على السوء
إلا بالحسن والحمد لله على ذلك كثيراً^(١) . »

ووضح أكثر من هذا في موضع آخر بكلمة تكاد
تكون صورة صادقة لحياته مع الناس قال :
« وعني أخبرك أنني جبلت على طبيعتين لا يهينني معهما عيش

أبدًا ، وإني لأبرم بحياتي باجتماعهما ، وأود التثبت من نفسي
أحيانًا لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما وهما : وفاء
لايشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والمغيب ، والباطن والظاهر
تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما دريته ، ولا تتطلع إلى
عدم من صحبته ، وعزة نفس لا تقرر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد
عليها من تغير المعارف ، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة
من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها . وإني لأجفى فأحتمل ،
وأستعمل الأناة الطويلة والتلوم الذي لا يكاد يطيقه أحد ، فإذا
أفرط الأمر وحيت نفسي تصبرت وفي القلب ما فيه ، وفي ذلك أقول :
لي خلتان أذاقاني الأذى جرعاً ونغصا عيشتي واستهلكتا جلدي
وفاء صدق فما فارقت ذامقة فزال حزني عليه آخر الأبد
وعزة لا يحل الضيم ساحتها صرامة فيه بالأموال والولد^(١)

وما مربك من حياة ابن حزم شرح ضاف لكلمته هذه .
وإنه ليغلو في خلق الوفاء حتى لينقلب نوعاً من الإلفة التي لا صبر
له على فراقها ، بل يغرق أكثر من ذلك فيني لما يألفه من الأشياء
قال ص ٢٢ : « فما نسيت ودألي قط ، وإن حنيني إلى كل
عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء . وقد استراح من

لم تكن هذه صفته ، وما مللت شيئاً بعد معرفتي به ... وما
رغبت في الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت ، لا أقول
في الألاف والإخوان وحدهم ، لكن في كل ما يستعمل الإنسان
من ملبوس ومركوب ومطعم ... »

* * *

لابن حزم إلى جانب فضائله أشياء ربما عدها بعض الناس
من العيوب : ومما يعجبني أن يدل عليها هو نفسه بصراحته المعهودة
وصدقه المألوف . فقد ذكر السر في كثرة اطلاعه على شؤون
النساء وأسرارهن وعدم نسيانه لحوادثهن فقال : « وأصل ذلك
غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهتهن فطرت به ^(١) »
وفي موضع آخر . « ولقد اطلعت من سر معتقد الرجال والنساء
في هذا على أمر عظيم . وأصل ذلك أنني لم أحسن قط بأحد
ظناً في هذا الشأن مع غيرة شديدة ركبت في ^(٢) » وذكر
بعد ذلك لنفسه صفة أخرى وهي الكتمان ، فقد أفادته في الغوص
على أسرار النساء ووفى هو بعد ذلك فلم يبح بشيء اطلع عليه قال :
« فلم أزل باحثاً عن أخبارهن كاشفاً عن أسرارهن وكن

(١) طوق الحمامة ص ٤٧ .

(٢) ص ١٢٤ .

قد أنسن مني بكتمان فكن يطلعني على غوامض امورهن ، ولولا
أن أكون منها على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من
تنبيههن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء ^(١) .

هذا ، وأميز صفات ابن حزم وأبعدها في الدلالة على رجولته
وصلابته وممانته خلقه : أنه مع تربيته في حجور النساء وترعرعه
بينهن ، ومخالطته لكثير منهن ، وإطلاعه على أسرارهن ... مع
هذا كله لم يخرج عن عفقه لحظة من اللحظات ، مع اعتقادي بأنه لو
عرض لغيره بعض ما عرض له ما ثبت أمام نفسه لحظة واحدة . وهذا
خلق عظيم يقدره من عرف النفس البشرية وضعفها في هذا الباب .
وأحب شيء لدي أن أستمع لهذه النفس الكبيرة الصادقة ،
وهي تتبرأ مما قد يقع في خلد كل قارئ لكتابه (طوق الحمامة) ،
وكأنها تعطيه بعض العذر في ظنه السوء ، لأن من خبر من
جماعات النساء ما خبر مؤلف الطوق لا يعقل بحال أن ينجو من
الحرام . ونحن نميل إلى هذا الظن أيضاً ولكن في رجل غير ابن حزم :
قال بعد ذكر حوادثهن وأسرارهن :

« وإني لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا يعلم الله - وكفى
به عليماً - أنني بريء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي

الحجرة . وإني أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حلت مؤثري على
فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنى مذ عقلت إلى
يومي هذا . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى ، والمستعصم
فيما بقي ^(١) .



(١) طوق الحمامة ص ١٢٥ . هذا ومعلمة الإسلام تجعل زمن
كتابته (طوق الحمامة) حول سنة ٤١٨ هـ ، فإن صح هذا كان
كلام ابن حزم المذكور بعد أن اجتاز مرحلتين خطيرتين : دور المراهقة
والفتوة وأكثر دور الشباب ، وسنه حينئذ ٣٤ سنة وكان قد مضى
على انقطاعه عن مجامع صباه وعكوفه على العالم والتأليف والدعوة
سنون ثمان .

ح - مزاجه

تميز ابن حزم بمزاج حاد عنيف سيطر عليه طول حياته ،
وجرت عليه ما جرت من تأليب الناس . وقد كان رحمه الله يعزو خدته
لمرض فيه . ويستطيع من قرأ له فصلاً كاملاً من فصوله التي
يجادل فيها المخالفين ، أن يجد في أسلوبه مناكر لا يمكن التسامح
بها ، فهو في نقاشه معهم غير هادئ ولا واسع الصدر ، فكثيراً
ما يستنزل عليهم لعنة الله وغضبه وقناله ، وكثيراً ما يصحهم بالضلال
والمروق والكفر والفسوق ، وأكثر من ذلك طعنه في عقولهم
وعلمهم ونياتهم . وستقرأ من هذه الخيرات في رسالته (في المفاضلة)
ظائفة صالحة ، فوطن النفس على تحملها مذ الآن .

وليس لنا إلا أن نأسف لهذه المفوات يقع فيها عالم جليل
قلما جاد الزمان بمثله ، وهو كان أحق الناس باتباع سنة أمر الله
بها في قوله : « وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ^(١) وقوله : « وَلَا تَجَادِلُوا
أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ^(٢) وقوله : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » ^(٣) .

(١) سورة النحل (١٦) الآية : ١٢٥

(٢) سورة العنكبوت (٢٩) الآية : ٤٦

(٣) سورة فصات (٤١) الآية : ٣٤

ولو كان للمرء أن يخرج على طبعه وجبلته لاستأصلنا شروراً كثيرة ،
فلندعُ مالا حيلة فيه ، ولنلتمس العذر لهذه النفس الخيرة
والعقل الكبير .

لم تترك الصراحة والحدة والصلابة لابن حزم صديقاً ولا شفيعاً
عند الناس ، يجتهد في الرأي الاجتهاد الصائب ويتصيد الحجج
القوية المحكمة ، ثم يشوّه ذلك كله بعبارات التقريع حتى يزهد
السامع في خير الكلام وشره ، وحتى لا يكون عنده في اجتهاده
الصائب وحيثه السديدة شافع لهفوته وحدثه . وقد مرت بك
أنفاً كلمة ابن حيان : « ولم يكن يلفظ صدعه بما عنده بتعريض
ولا يرقه بتدريج بل يصكّ به معارضه صكّ الجندل وينشقه إنشاق
الخردل . » وأنه مع ما أوقعه عنفه فيه من المصائب والتغريب والسجن
وإحراق الكتب ، بقي « غير مرتدع ولا راجع » .

قال الذهبي : « وقد امتحن هذا الرجل وشدد عليه ، وشرّد
عن وطنه ، وجرت عليه أمور لطول لسانه واستخفافه بالكبار ،
ووقوعه في أئمة الاجتهاد ، بأقبح عبارة وأفظ محاضرة وأمنع رد . »
ولست أجد في صفة لسانه كلمة أصدق من كلمة ابن العريف :
« كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين » ولا والله ما
يستويان فقد أفادت شدة الحجاج فوطدت ملكاً وقطعت مفاصد

وأمنت مخاوف ثم خلد نفعها إلى الأبد وزال ضررها بزواله :
ولم يفد عنف ابن حزم شيئاً بل أفسد عليه ما يرجو من نشر
خير ودعوة إلى حق ، ثم مات وبقيت آثار لسانه تمض كل من
يقرأ كتبه سواء كان من الفرق التي نالها بالقوارص أو لم يكن :

جراحات السنان لها التثام ولا يلتام ما جرح اللسان

أما صلابته فهي في ثباته على هذا الأسلوب في علائقه مع
الناس على رغم كل ماناله ، وبقي رحمه الله طول حياته يتلقى
عواقب مزاجه مما لا يحمله أقوى الرجال رجولة . ولا يزيده ذلك
إلا مضياً في سبيله ، وعناداً في جداله وحماسة في كفاحه وعنفاً
في خطابه . لقد أوتي العلم ولم يثوث سياسته وسياسة العلم - على
ما قالوا - أعوص من إتقانه . قال ابن حيان : « وأكثر معايبه
- عند المنصف له - جهله بسياسة العلم » .

ولست أريد قدحاً في ابن حزم وقد قدمت له العذر المقبول
من مزاجه وطبعه ، وأنا أعلم حق العلم أن اندفاعه وغلوّه في الدعوة
وحماسة لها لم تكن إلا عن عقيدة وإخلاص وتفان فيما يرى .
أنه الحق ، ومن كان في هذه المرتبة من الجهاد لم يبال الهفوات .
الصغار تصدر من هاهنا وهاهنا . ولقد أشار إلى هذا ابن حيان
بعض الإشارة حين قال : « كان يحمل علمه هذا ومجادل من

خالفه فيه ، على استرسال في طباعه ، وبذل بأسراره ، واستناد على العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده (لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ) وَلَا تَكْتُمُونَهُ (١) .

على هذه الطباع قامت علائق ابن حزم مع الناس موافقين ومخالفين ، فلننظر فيها وفي آرائهم فيه ، في حياته وبعد مماته .



ط — هو والناس

« من قدر أنه يسلم من طمن الناس وعيبيهم فهو مجنون »
« ابن حزم »

أكثر ابن حزم من الحساد والأعداء يبعده عن المصانعة
وانتقاده أكثر فقهاء عصره ، وويل للفقهاء وويل منهم وويلاً
كثيراً إذا دبت بينهم العداوة والحسد . لقد تألبوا على ابن
حزم وكفروه وضللوه وحذروا منه العوام والسلطين وطاردوه
بدعائهم من بلد إلى بلد ومن بادية إلى بادية ، وحذرته الملوك
وتفادت لقاءه وتقربت إلى العامة باضطهاده . لقد لقي في حياته
أذى كثيراً ، وحمل صدره آلاماً كباراً ، وكان ينفس عن نفسه
بعض الوقت في أبيات يرسلها تفيض عزة كما تفيض شكوى من
الحساد جاء في كتابه طوق الحمامة ص ٧٩ « إن قوماً من مخالفي
شرقوا بي ، فأساؤوا العتب في وجهي ، وقذفوني بأني أعصد
الباطل بحجتي ، عجزاً منهم عن مقاومة ما أوردته من نصر الحق
وأهله ، وحسداً لي ، فقلت وخاطبت بقصيدي بعض إخواني
— وكان ذا فهم — منها (الأبيات غير متتابعة) :

وخذني عصا موسى وهات جميعهم ولو أنهم حياض ضال نضائض

يرفون في عيني عجائب حمة وقد يتمنى الليث والليث رابض
ويرجون ما لا يبلغون كمثل ما يرتجي محالاً في الإمام الروافض
عاني ابن حزم من عصر يبه ما يعاني كل عبقرى : نكران

فضل ، وجحود إحسان ، وحسداً وطعناً واتهاماً . ومن حسن
الحظ أن الزمان سمح لقليل من شعره بالسلامة ، فلمسنا فيه
شكواه وآلامه ، لمساً يغنيننا عن كثير من تفاصيل الترجمة ،
قال وقد صرح بالعوامل التي غيّبت فضله على مواطنيه ، من
آيات بعث بها إلى قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشير :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيي أن مطلعني (الغرب)
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجدت على ماضع من ذكرى النهب
ولي نحو آفاق العراق صباية ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو القاسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأطلب ما عنه تجيء به الكتب
هنالك تدري أن للعبد قصة وأن كساد العلم آفته القرب
فيا عجباً : من غاب عنهم تشوقوا له ، ودنو المرء من دارهم ذنب
وإن مكاناً ضاق عني لضيق على أنه فسح مهامه سهب
وإن رجالاً ضيعوني لضيع وإن زماناً لم أنل خضبه جذب^(١)

(١) باقوت ، المقرئ ، المهامه : الفيافي ، السهب : الواسعة .

لقد جرب الناس منذ القدم فوجدوا أن « المعاصرة حرمان »
وأن أزهد الناس في عالم أهله وجيرانه . وقلما ظهر فضل فاضل في
حياته في غير غربة .

وقال من قصيدة :

أنا العلق الذي لا عيب فيه سوى بلدي وأنا غير طاري
تقر لي العراق ومن يليها وأهل الأرض إلا أهل داري
طووا حسداً على أدب وفهم وعلم ما يشق له غباري
فهما طار في الآفاق ذكرى فما سطع الدخان بغير نار^(١)
وقد تقدم لك في الكلام على مصنفاته ، قوله في إحراق
كتبه ، وله أشعار كثيرة طافحة بشكوى الحسد وآلامه من
حساده وتقريعه الشامتين بنكبة الناس على ما عمووا عن إدراكه
من فضله ، من مثل قوله :

لانشمتن حاسدي إن نكبة عرضت فالدهر ليس على حال بمترك
ذو الفضل كالنبر يلقي تحت متربة طوراً وطوراً يرى تاجاً على ملك^(٢)
ومن شدة بلاء ابن حزم أنه كان في أسرته من ناصبه
العداء والحسد ، هذا ابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم

(١) ياقوت - والعلق : التحفة النفيسة التي تعلق .

(٢) ياقوت والمقري .

الوزير الكاتب الأديب ، يضمن عليه بمطفه ، ويخذه ، ويعين
الزمان عليه وكان من حقه أن يعينه على الزمان ، وتدب إليه
عقارب الحسد لفضل ابن عمه ، وكان عليه أن يكون أول
الفخوريين به . أرسل إليه رسالة عاقبة جافية ، اضطر ابن حزم إلى
أن يجيبه عليها بما يلي :

(١) [سمعت وأطعت أقوله تعالى : (وأعرض عن الجاهلين) (٢) .

وأسلمت وانقذت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام (صل من قطعك
واعف عمن ظلمك) ورضيت بقول الحكماء (كفاك انتصاراً ممن
تعرض لأذاك إعراضك عنه) وأقول :

تتبع سواي امراً يبتغي	سبابك إن هواك السباب
فإني أبيت طلاب السفاه	ونزهت عرضي عما يعاب
وقل ما بدا لك من بعد ذا	وأكثر فإني سكوتي خطاب
وأقول :	

كفاني بذكر الناس لي وما أثري	ومالك فيهم - يابن عمي - ذا كر
عدوي وأشياعي كثير ، كذاك من	غدا وهو نفاع المساعي وضائر
وإني وإب آذيتني وعقتني	لمحتمل ما جاءني منك صابر
فوقع له أبو المغيرة على ظهر رقعته :	

(١) هذه المراسلة في نفح الطيب للمقري الجزء الأول ترجمة ابن حزم .

(٢) سورة الأعراف (٧) الآية : ١٩٨

« قرأت هذه الرقعة العاقة ، فحين استوعبتها أنشدتني :

نحنح زيد وسعمل لما رأى وقع الأسل

فأردت قطعها وترك المراجعة عنها ، فقالت لي نفسي : قد

عرفت مكانها ، بالله لا قطعنها إلا يده . فأثبت على ظهرها ما يكون
سبباً إلى صونها فقلت :

نعت ولم تدر كيف الجواب وأخطأت حتى أتاك الصواب

وأجريت وحدك في حلبة نأت عنك فيها الجياد العرب

وبت من الجهل مستصحباً لغير قرى فأنتك الذئاب

فكيف تبينت عقي الظلوم إذا ما انقضت بالخمس العقاب

لعمري مالي طباع تدم ولا شيعة يوم مجد تعاب

أنيل المنى والطبأ سخط وأعطي الرضا والعوالي غضاب

وأقول :

وغاصب حق أوبقته المقادر « يذكركني (حاميم) والرمح شاجر »^(١)

(١) الشطر الثاني من مقطوعة قيلت في حرب الجمل : فإنه لما

اشتدت المعركة أتى محمد بن طلحة إلى السيدة عائشة فقال : « يا أمه

سارني بأمرك » قالت : « أمرك أن تكون كخير بني آدم إن تركت »

فحمل فجعل لا يحمل عليه أحد إلا حمل عليه وقال : « حتم لا ينصرون »

واجتمع عليه نفر من أصحاب علي فأنفذه أحدهم بالرمح وقال :

وأشعث قوام بآيات ربه فإيل الأذى فيما تزي العين مسلم

هتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللنم

يذكركني (حاميم) والرمح شاجر فهلا تلا (حاميم) قبل التقدم

غدا يستعير الفخر من خيم خصمه
 ألم تتعلم يا أخا الظلم أنني
 تذلل لي الأملاك حر نفوسها
 وأبعث في أهل الزمان شوارداً
 فإن أثو في أرض فأني سائر
 وحسبك أن الأرض عندك خاتم
 ولا لوم عندي في استراحتك التي
 فأني لأحلف الذي مر حافظ
 هنيئاً لكل ما لديه فأنا
 بهذه الشدة كانت معاملة أقربائه ، وقدماً قال طرفه :
 وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
 على المرء من وقع الحسام المهند

* * *

إجماع فقهاء عصره على تضليله ، ونزعتة السياسية في عصبيته
 لبني أمية على غيرهم من قريش ، وتوحش الحكام عادة ممن
 سبقت له سلطة وانتزعت منه ... جعلت من حياة ابن حزم
 معارك متلاحقة لا ينفذ عن نفسه غبار معركة حتى تقوم له
 أخرى يذكرها حساده ومنافسوه .

جادل اليهود والنصارى أشد جدال وأقساه ، ثم نازع أرباب
 المذاهب من المسلمين فلم يرفق بهم في شيء قط ، « وكانت له

مهم مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة^(١) ، واستطاع أن يجلب جماهير إلى مذهبه ، مما حرك خصومه أن يرصدوا له ويسدوا عليه الطرق . ولم يتنفس إلا أياماً قليلة في جزيرة ميورقة ، تحت ظل حاكمها ابن رشيق وكان قد دخلها لينشر مذهبه الظاهري بدعوة من الحاكم نفسه على ما مر بك سابقاً .

قامت مناظرات عديدة ومناظرات بينه وبين الفقيه أبي الوليد الباجي ، فكان إذا غلبت حجة ابن حزم غيره الباجي بغناه ، وأدلّ عليه بالفقر ، وقد مر بك جواب ابن حزم المفحم للباجي . وسبب الخصام بينهما هو محمد بن سعيد من أهل ميورقة فإنه على ما ذكر ابن الأبار^(٢) « صدر^(٣) إلى ميورقة وقعد لإقراء الفقه والأصول ، ولما دخلها أبو محمد ابن حزم كتب ابن سعيد هذا إلى الباجي فسار إليه من بعض سواحل الأندلس وتضافرا جميعاً ، وناظراه فأفجماه وأخرجاه منها ، وكان ذلك سبب العداوة بين الباجي وابن حزم » قال المقرئ^(٤) « وجد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا أنه كان خارجاً عن المذهب ، ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه

(١) إرشاد الأريب .

(٢) التكملة لابن الأبار رقم ٤٤٣

(٣) نفح الطيب ١ : ٣٥٤ .

فقصرت السنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه . واتبعه على رأسه جماعة من أهل الجبل (سبحانه الله يامقري) وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها واتبعه أهلها . فلما قدم أبو الوليد كلموه في ذلك فدخل إليه وناظره وشهر باطله ^(١) وله معه مجالس كثيرة . «

هكذا قال المقري ، وقد رأيت فيما سبق (ص ٣٨) أن

الباجي كان يتعمر في التنقيير على ما يعيب به ابن حزم حتى إذا لم يجد عمداً إلى ذكر غناه ، ومع هذا فانظروا الانصاف وقول الصدق عند ابن حزم حين عرض لذكر خصمه الباجي فقال :

« لولم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم . » لقد كان ابن حزم في هذا كبير النفس نبيلها .

وأشد من جرد على ابن حزم لسانه فيما أحسب : القاضي أبو بكر ابن العربي ، بعد أكثر من مئة عام ، وقد عرفت رأيه الظالم في الظاهرية فتأمل شهادته في ابن حزم ، قال :

« ^(٢) ... وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن ، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخييف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم : نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ثم

(١) كان ذلك نحو عام ٤٤٠ هـ على ما ذهبت إليه معلنة الإسلام .

(٢) تذكرة الحفاظ .

انتسب إلى داود ، ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة يضع ويرفع ، ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ، ويقول عن العلماء ما لم يقولوا ، تنفيرا للقلوب عنهم ، وخرج عن طريق المشبهة في ذات الله تعالى فجاء فيه بطوام ، واتفق بين قوم لا بصر لهم إلا بالمسائل ، فإذا طالبهم بالدليل كاعوا فيتضحك مع أصحابه منهم . وعضدته الرياسة بما كان عنده من أدب ونسبة كان يوردها على الملوك فكانوا يحملونه ويحمونه لما كان يلقي إليهم في شبه البدع والشرك . وفي حين عودي من الرحلة ألفت حضرتي منهم طافحة ، ونار ضلالتهم لأئمة ، فقاسيتهم مع غير أحزان ، وفي عدم أبصار إلى حسان يطوئون عقبي (?) تارة تذهب لهم نفسي وأخرى تنكسر لهم ضرسى . وأنا ما بين إعراض عنهم وتشغيب بهم .

وقد جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه (نكت الإسلام) فيه دواهي فجردت عليه نواهي ، وجاء آخر برسالة في الاعتقاد فنقضتها برسالة الغرة . والأمر أفحش من أن ينتقض ... »

هذا وإليك قصيدته التي يشرح فيها ما لاقى من الناس فيما خص

مذهبه الديني فقط :

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت أقوالهم وأقاويل العدي محن

فقلت هل عيبهم لي غير أني لا أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن
وأني مولع بالنص لست إلى سواء أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني نحو آراء يقال بها في الدين، بل حسبي القرآن والسنن
يا بر دذا القول في قلبي وفي كبدي ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صم الحصى كدأ من مات من قوله عندي له كف
إني لأعجب من شأني وشأنهم واحسرتا إنني بالناس ممتحن
ما إن قصدت لأمر قط أطلبه إلا وطارت به الأظعان والسفن
أما لهم شغل غني فيشغلهم أو كلهم بي مشغول ومرتهن
كأن ذكرى تسبيح به أمروا فليس يغفل غني منهم لسن
إن غبت عن لحظهم ماجوا بغیظهم حتى إذا مارأوني طالعا سكنوا
دعوا الفضول وهبوا للبيان لكي بدري مقيم على الحسني ومفتتن
وحسبي الله في بدء وفي عقب بذكره تدفع الغناء والإحزن
هذه المقاومة الشديدة ، وإن ضايقت ابن حزم ونغصت
عيشه ، أجدت على المكتبة العربية وعلى العلوم أعظم الجدوى :
فقد اضطرته إلى أن يجرد لسانه وقلمه ويتجول مجاهداً في سبيل
دعوته واعظاً ومعلماً ومؤلّفاً ، قال في رسالته (مداواة النفوس
ص ٣٠) : « انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة : وهي أنه
توقد طبعي واحتدم خاطري وحيي فكري وتهيج نشاطي ، فكان

ذلك سبباً إلى توالي ف عظيمة النفع ، ولولا استشارتهم ساكني
واقدماحهم كما نبي ما انبعثت لتلك التواليف «

فإلى هؤلاء يعود إذاً فضل غير مباشر بما نعيم به من ثمرات
هذا الفكر الحصب ، والله سبحانه زواج في هذه الدنيا بين الخير
والشر ، فليس عليها خير محض ولا شر محض .

والظاهر أن الحملة عليه التي لم تنقطع بمماته ، ولم تقتصر على
ابن العربي كما ستعرف بعد قليل .

تري هذا النمط من المتحاملين وإلى جانبه طراز آخر من
الناس ، أخذوا أنفسهم بقول الحق فذكروا المحاسن والهفوات ،
من هؤلاء أبو مروان بن حيان وقد مر بك أكثر قوله فيه
بمناسبات مختلفة وخاتمة قوله : « . . . إلى أن يُحرّك بالسؤال
فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء » .

قال الذهبي عقب روايته لكلام ابن حيان : « هذا القائل
منصف ، فأين كلامه من كلام أبي بكر بن العربي وهضمه
لمعارف ابن حزم » .

وبعد أن أورد ابن حيان شعره في نعي نفسه قال :
« ويا لبدائع هذا الخبر علي وغرره ، ما أوضحها على كثرة
الدافنين لها والطامسين لمحاسنها . وعلى ذلك فليس ببدع فيما أضيع

منه ، فأزهد الناس في عالم أهله ، وقبله ردي العلماء بتبريزهم على من يقصر عنهم ، والحسد داء لا دواء له .

قلت (المتكلم ابن بسام) :

« ولعمري ما عقه ، ولا بنجسه حقه »^(١) .

ومن هؤلاء المنصفين الحافظ الكبير العدل الحجة الإمام الذهبي فقد شهد بأن « ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة . تقع له المسائل المحررة والمسائل الواهية كما يقع لغيره . وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ » .

وصف ابن حزم مشبطات مجمعه الأندلسي وصفًا دقيقًا ، ولئن كان أجاد وطبق المفصل ، إنه إنما كان يصف ما عانى منه هو نفسه خاصة . والوصف في الجملة عام ينطبق على كل عالم نبغ بالأندلس فلنختتم هذا الفصل بكلمته فإن فيها تاريخاً وبلاغاً قال : « وأما^(٢) جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر : أزهد الناس في عالم أهله . وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : لا يفقد النبي حرمة إلا في بلده . وقد تيقنا ذلك

(١) مجلة المقتبس ١ : ٦

(٢) نفح الطيب ٢ : ١٣٠

بما لقي النبي ﷺ من قریش وهم أوفر الناس أحلاماً وأصحهم عقولاً وأشدهم ثبناً ، مع ما خصوا به من سكناتهم أفضل البقاع وتغذيتهم بأكرم المياه حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس والله يوثق فضله من يشاء . ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به واستهجانهم حسناته وتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق مغير ومتهمل مدّع ، وإن توسط قالوا : غث بارد وضعيف ساقط ، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمن قرأ ؟ ولأمة الهبل . وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقتين : إما شفوفاً دائماً يعليه على نظرائه ، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها ، فهناك حيي الوطيس على البائس وصار غرضاً للأقوال وهدفاً للمطالب ونصباً للتسبب إليه ونهباً للألسنة وعرضةً للتطرق إلى عرضه . وربما نحل ما لم يقل وطوّق ما لم يتقلد ، وألحق به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه وبالجراء - وهو المبرز السابق إن لم يتعلق من السلطان بحظ - ألا يسلم من المتالف وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض له وهمز واشتط

عليه وعظم يسير خطبه ، واستشنع هين سقطه ، وزهبت محاسنه
وسترت فضائله ، وهتف ونودي بما أغفل ، فتنكسر لذلك همته
وتكل نفسه وتبرد حميته . وهذا عندنا يصيب من ابتداء يحوك
شعراً أو يعمل بعمل رياسة فإنه لا يفلت من هذه الجبائل ، ولا
يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائق والمطفئ المستولي
على الأمد . »

هذا ما تنهات إليه حاله مع الفقهاء والحكام وقد مضى الجميع
إلى ربههم بحاسبهم وهو سبحانه يضع الموازين القسط ، ولا تظلم
عنده نفس شيئاً .

وموضع الإشفاق في نكد ابن حزم أن خصومة الناس له
لم تنقطع بموته بل استمر حفظه السيء ينسج حول اسمه ذيولاً
من الانتقاص والتعنت في محاسبهته ، حتى نهى الشيوخ فيما بعد عن
قراءة كتبه ، وحتى صرت ترى العالم أو المؤلف ، إذا استفاد
من حكم لابن حزم أو اقتبس شيئاً من كلامه في تصانيفه
عقب عليه بما يشعر بعدم الاحترام ، ولست أحيلك على كتب
الفرق التي خاصمها ابن حزم واشتد عليها ^(١) ، وإنما أعرض عليك

(١) ولا بأس أن تطلع من ذلك على عواطف إمام مجاهد شيعي

هو بلدنا وعصرنا السيد محسن الأمين العاملي من معتدلي الإمامية
والقائلين بالتقريب بين مذاهب المسلمين ، ولك أن تقبس على عواطفه —

أمثلاً واحداً منتزعاً من كتاب لأحد أعلام أهل السنة ، نجد له أمثلاً كثيرة في تضاعيف المؤلفات نقل الزرقاني في (شرح المواهب) رأي ابن حزم في تفضيله أزواج النبي ﷺ على السيدة فاطمة وغيرها ، فلم يسعه إلا أن يجود بهذه العبارات : « قاله من لا يعتمد به !! » . وهو قول ساقط مردود ضعيف لا مستند له من نظر ولا نقل !! »^(١) .

وليس كل من خالف الجمهور في مسألة يقال له هذا ، وليس ابن حزم بالذي يرسل القول ضعيفاً من غير مستند له من نظر

— نحو ابن حزم عاطفة غيره من الشيعة ممن هم أقل اعتدالا وأشد عصبية . قال يذكر رأيه في كتاب ابن حزم الكبير الفصل في الملل والأهواء والنحل : « وأما من الآن الجزء الثالث من كتاب ابن حزم المسمى بالفصل في الملل والنحل ، المطبوع بمصر ، وقد وجدنا فيه من الكذب والافتراء على الشيعة ومصادمة الحقائق بالإنكار وإظهار النصب والعداوة لأهل البيت وشيعتهم وأتباعهم وإطلاق لسانه بالسوء ما تقشعر منه الأبدان فاكتمينا بإيراد شيء من ذلك وتفنيد له لأن استقصاء سخافات كماله وتفنيدها بطول به الكلام وأكثره واضح البطلان » . اهـ أعيان الشيعة ١ : ٩٦ (١) شرح المواهب ٣ : ٢٢٥ . ومن ذهب في ابن حزم هذا المذهب ، السبكي في طبقاته فقد قال عن كتابه (الفصل) : « كتابه هذا من أشهر الكتب ، وما يروح المحققون من أصحابنا ينهون عن النظر فيه لما فيه من الازدراء بأهل السنة ، وقد أفرط فيه في التعصب على أبي الحسن الأشعري حتى صرح بنسبته إلى البدعة . اهـ انظار كشف الظنون ٢ : ٥٧١

أو نقل ، وسترى قوة حجته حين تصل إلى رسالته « في المفاضلة
بين الصحابة . »

والظاهر أن خصومة الناس للرجل حياً وميتاً رزق من الله
لا يؤتية في الغالب إلا المخلصين الأحرار ، الصدايق بالحق الجبّاهين
به . جعل الله جزاء ابن حزم من جهاده أكثر مما لاقى في حياته
من عنت الناس وأذاهم وكيدهم .



ي - وفاته

استقرت النوى ^(١) بهذا المجاهد العظيم ، بعد أن طوّف في مدن الأندلس ورحل إلى القيروان وجزيرة (ميورقة) : يلفظه بلد إلى بلد ، وتقذفه بادية إلى بادية ، حتى أراد الله له الطمانينة فاستراح إلى الأبد في قريته بالبادية من غرب الأندلس على خليج البحر الأعظم : مطارداً منفيّاً . استأثر الله بروحه في ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦ هـ ^(٢) ودفن بقريته (مُتَلَجِّم) التي هي ملكه وملك آبائه من قبله . وختمت بوفاته إحدى وسبعون سنة قمرية وأحد عشر شهراً إلا يومين ؛ قضاها في كفاح ونضال ، ومرارة ونفي وإيذاء وتشريد ، صابراً محتسباً مستسيفاً ما يناله باحتمال عجيب وثبات عنيد ، لا يجد لكل ذلك خطراً في جنب الله .

(١) ذكر الذهبي عن أبي الخطاب بن دحية أن ابن حزم « قد

برص من أكل اللبان وأصابه زمانة » - تذكرة الحفاظ .

(٢) هناك تاريخ آخر تفرد به محمد بن الغزال ، فقد روى عنه

الذهبي أنه قال : « توفي في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين » ثم

قال الذهبي : « وأرخه في سنة ست غير واحد » اهـ . قلت :

وقد أجمع المترجمون له على أن الوفاة في سنة ست فلا ياتفت إلى

الرواية الشاذة .

ولقد نعى - رحمه الله - نفسه بأبيات أنشدها و كأنه يطلع

في صفحة الغيب ، قال :

كأنك بالزوار لي قد تبادروا وقيل لهم : أودى علي بن أحمد

فيارب محزون هناك وضاحك وكم أدمع تدرى وخذ مخدّد

عفا الله عني يوم أرحل ظاعنا عن الأهل محمولا إلى ضيق ملحد

وأترك ما قد كنت مغتبطاً به وألقى الذي أنسيت دهرأ بمرصد

فوا راحتي إن كان زادي مقدما ويا نصبي إن كنت لم أتزود^(١)

وبوفاته بدأ يشق طريقه إلى الخلود ، وطفقت حسرة الناس

تعظم لفقده وأخذوا يشعرون شعوراً قوياً بعظم النكبة فيه .

فعرفوا له - حسب العادة في الشرق - منزلته وعبقريته ، وبوؤوه

المكان اللائق به فكان أفحل ذهن انبثقت عنه الأندلس في جميع

عصورها . وهو في رأيي الذهنية الفريدة التي تمثل الثقافة الأندلسية

أصدق تمثيل ، ولست أرى هذه الميزة لآخر سواه .

خلف من البنين غير أبي رافع الذي تقدم ذكره مراراً : أبا أسامة

يعقوب وأبا سليمان^(٢) ، فنشروا معارف أبيهم وحفظوها جهد طاقتهم .

رحمه الله وجزاه عن الحق وأهله خيراً

(١) إرشاد الأريب . مجلة المقتبس : المجلد الأول . وفي إرشاد الأريب

رواية ثمانية لعجز البيت الرابع هذا نصها : وألقى الذي آنست منه بمرصد

(٢) معلمة الإسلام (ابن حزم) .